جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية

سلسلة تصدر
في منتصف كل شهر عربي

العدد: ١٠٥

أيــام في حياة محمد ﷺ

أ. د. محمد الدسوقي

القاهرة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

أيام فى حياة محمد ﷺ

أ. د. محمد الدسوقى

العدد: ١٠٥

القاهرة
ربيع الأول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ . " صدق الله العظيم "

(سورة الفتح : ٢٩)

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الذى اصطفاه ربه ليكون رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحابته أجمعين ، ومن دعا بدعوته ، واستمسك بما بعث به إلى يوم الدين .. وبعد ..

فإن فى حياة الرسل والأنبياء والمصلحين والمجددين أيام مشهورة ، وأحداث بارزة تعكس مبلغ ما بذل هؤلاء من الجهاد والكفاح من أجل أن تسود كلمة الحق والخير ، كما تعكس أيضاً سطوة الباطل ، وحرصه الشديد على مقاومة دعوات الهداية والإصلاح .

وكان خاتم الهداة والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ المثل الكامل فى كل شيء ، وكانت حياته المباركة كلها صفحة مشرقة بجلائل الأعمال وعظيم الخصال ، ومن ثم تعد هذه الحياة بلا جدال الأسوة الحسنة للدعاة فى سبيل الله ، والصورة المثلى للبذل والعطاء ، والآية الصادقة على أن الإيمان الذى لا تشوبه شائبة ما لا تنال منه أعاصير البغى وأحقاد الكفر ، وظلام الجهل مهما قست وطغت وأسرفت فى مكرها وكيدها ولا تزيده الشدائد والمكاره والعقبات إلا مضاء فى العزيمة ، وثباتاً فى اليقين ، وإصراراً على مواصلة الجهاد والتضحية .

ولا مجال لتفصيل القول عن تلك الحياة الفريدة في تاريخ البشرية ، ومهما يكتب الباحثون فيها ، فإنها ستظل أبدأ في حاجة إلى مزيد من الحديث عنها ، والكشف عن مُثلها وقيمها الرائعة ، فهي غنية بالمُثل والآداب والقيم التي يتطلع إليها الإنسان في ظل الحضارة المادية المعاصرة ؛ علّه ينجو مما استبد به من القلق والاكتئاب على الرغم مما يحوزه من أسباب الترف والرفاهية .

وإذا كان المجال لا يسمح بتفصيل القول في حياة محمد وأيامها المباركة فإني أقصر الحديث على بعض هذه الأيام ، وهذا لا يعني أن ما سواها ليس له نفس الأهمية للذي آثرت الحديث عنه ، فحياة الرسول الخاتم كل أيامها سواء من حيث المنزلة والقدوة والعبرة ، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك كله وهذه الأيام هي :

١ ــ يوم المولد .

٢ ــ يوم البناء بخديجة .

٣ ــ يوم الوحي الأول .

٤ ــ يوم الجهر بالدعوة .

٥ ــ يوم المساومة .

٦ ــ يوم الطائف .

٧ ــ يوم الإسراء والمعراج .

٨ ــ يوم الهجرة .

٩ ــ يوم الفرقان .

١٠ــ يوم أُحــد .

١١ــ يوم الأحزاب .

١٢ــ يوم بنى قريظة .

١٣ــ يوم الحديبية .

١٤ــ يوم الفتح .

١٥ــ يوم حنين .

١٦ــ يوم العسرة .

١٧ــ يوم الحج الأكبر .

١٨ــ يوم الوفاة .

على أن الحديث عن هذه الأيام ليس سرداً تاريخيـــاً لــها ، ولكــن محاولة لالتماس الدروس المستفادة منها ، فالأمة فى أمس الحاجة إلـــى هذه الدروس فى عصر تداعت فيه على هذه الأمة ــ التى اصطفاهــا الله لتكون خير أمة أخرجت للناس ــ الذئاب وأشباه الذئاب من كــل مكــان يريدون القضاء على هويتها الإسلامية وحضارتها الإنســانية ، ولكــن هيهات ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفــع النــاس فيمكــث فــى الأرض** ﴾ [1] .

---

(1) الرعد : ١٧ .

وعلينا لكى لا يحقق ذلك النشاط المحموم المدروس لهؤلاء الأعداء أهدافهم الخبيثة تحت ستار مزيف من دعوات التعاون والإصلاح أن نعتصم بحبل الله قولاً وعملاً ، وأن نواجه كل فكر أو اقتراح يسعى لغربة الإسلام بين أهله ، ويُمكِّنْ لأشد الناس عداوة للمؤمنين فى أرض الإسلام ، بشجاعة وحزم وبذل للأموال والأنفس ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

والله يتولى الجميع بهدايته وتوفيقه ..

أ . د . محمد الدسوقى

" يــوم المولــد "

يُعد يوم مولد محمد ﷺ أسعد يوم فى تاريخ البشرية ؛ لأنها كـــانت فى طريق الانتحار ، فقد نسى الإنسان خالقه فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رشده ورسالته التى خُلِقَ من أجلها ، ومن ثم استمرأت البشـــرية حيـــاة الوثنية وألفت لغة النهب والسلب والحروب لأتفه الأسباب وأوهى العلــل وسيطرت عليها مظاهر الجهالة والضلالة ، والفساد ، وفقدت الرســالات السماوية التى جاءت للناس من قَبل مهمتها وتأثيرها ، فقد طرأ عليها على أيدى أتباعها التحريف والتغيير ، وتســربت إليــها مفــاهيم العنصريــة والوثنية ، فلم تعد خالصة للهداية والإصلاح .

وكان إنقاذ البشرية مما تردت فيه وإخراجها من الظلمات إلى النـــور لا يستطيع أن ينهض به زعيم أو مصلح ، لأن الفساد الذى هيمن علـــى المشاعر والضمائر فأهدر كرامة الإنسان ، وجعـــل النـــاس كوحـــوش الغابة ، يفتك الأقوياء بالضعفـــاء دون أن يردعـــهم رادع مـــن ديـــن ، أو يزجرهم زاجر من خُلق لا يمكن لبشر عادى مـــــهما تكـــن طاقاتـــه الفكرية ، وتوجهاته الإنسانية أن يتصدى له ويقضى عليه .

لقد كان العالم قبل مولد محمد بن عبد الله يضطـــرب فـــى البـــاطل ويتخبط فى الضلال ويتبسط فى المنكر .

كبهيمة عمياء قاد زمامها * * أعمى على عوج الطريق الأعوج

كان يسوق هذه البهيمة إلى الشرق الفرس على ما هم فيه من انحلال وفساد ، ويقودها إلى الغرب الروم على ما هم عليه من إباحية وفسوق ، وكان إيوان كسرى وبلاط القيصر يتنازعان الولاية على الأرض بالكفران والطغيان والقهر [1] .

إن الفرس والروم كانت لكليهما قبل الإسلام حضارة عريقة ولكنهما قد أصيبا بحالة من الفوضى والفساد قبل بعثة محمد ﷺ ، ومردُّ ذلك إلى الصراع الذى نشب بينهما واستمر عدة قرون من أجل السيطرة على العالم وسيادته ، بالإضافة إلى الأمراض المتباينة التى تفشت فيهما ، وهى أمراض تفتك بالعقائد والقيم الإنسانية الخالدة ، وحيث تصاب الأمم فى عقائدها وأخلاقها فإنها تفقد أهم مقومات حياتها واستقلالها ويكون مآلها الانحلال والانهيار .

لقد كان العالم قبل مولد محمد ﷺ فى حاجة ماسة إلى نبى يرسله الله بعقيدة يقتلع بها جذور الفساد ، ويستأصل شأفة الوثنية ، ويرسخ عقيدة التوحيد فى أعماق النفس ؛ لتولد البشرية من جديد ولادة تسلك بها طريق السعادة فى الدنيا والآخرة .

وكان هذا النبى الذى اصطفاه الله لمهمة إنقاذ البشرية من براثن الجاهلية والوثنية هو محمد بن عبد الله النبى الخاتم والرسول الذى بُعِثَ

---

[1] انظر مجلة الرسالة ، العدد : ١١٢١ ، ص٢ .

للناس كافة برسالة عالمية صالحة للتطبيق الدائم ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن ثم كان اليوم الذى ولد فيه فيصلاً بين عهدين فى تاريخ الإنسانية ، عهد انحرفت فيه الأمم انحرافاً بعيد المدى عن تعاليم الله ، فانتشر الفساد والبغى فى الأرض ، وساد الانحلال الخلقى والاجتماعى فى كل مكان ، وغلب الشقاء على السواد الأعظم من البشر ، وعهد استكملت فيه الإنسانية نضجها ، وقاربت رشدها ، واستعدت لاستقبال خاتم الرسالات الإلهية [1] .

إن يوم ميلاد النبى محمد كان نعمة ، وبركة للبشرية قاطبة ، وكان اليوم الذى ولد فيه هو يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل ٥٧٠م فتحاً لعهد جديد غير وجه التاريخ ، وأعاد للبشرية فطرتها وجعلها تحقق معنى الاستخلاف فى الأرض كما ينبغى أن يكون ، وتسير بخطوات حثيثة نحو العمران بمفهومه الشامل .

وأما ما روى من إرهاصات فى يوم المولد تبشر بقرب بعثة محمد ﷺ ، كتصدع الإيوان وخمود النيران فإنها لا تسلم من الأخذ والرد حول صحتها .

والمعروف أن محمداً وُلِدَ يتيماً ؛ فوالده لم يقم مع أمه آمنة طويلاً بعد البناء بها ، فقد خرج فى تجارة إلى الشام ، وترك زوجته حاملاً ، ومكث عدة أشهر فى الذهاب والإياب ، وفى طريق عودته عرج على

---

[1] انظر المصدر السابق ، ص ٦ .

أخواله في يثرب يستريح عندهم من وعثاء السفر ، لكنه مرض عند أخواله ، وتركه رفاقه حتى إذا بلغوا مكة أخبروا أباه بمرضه فأوفد عبد المطلب الحارث أكبر بنيه ليعود بأخيه بعد إبلاله ، وعلم الحارث حين بلغ يثرب أن عبد الله مات ودفن بها ، فرجع أدراجه ينعى أخاه إلى أهله ويثير من قلب عبد المطلب ومن قلب آمنة هما وشجنا لفقد زوج كانت ترجو فى حياته هناءة وسعادة [1] ، وقد توفيت الأم بعد نحو ست سنوات من مولد محمد .

إن الاحتفاء بمولد القادة والمصلحين تعبير عن إجلال الدور الذى قاموا به ، واتخاذهم أسوة حسنة فى كل شأن من شئونهم ؛ ليظل عطاؤهم بعد رحيلهم سراجا ينير طريق التطوير والتجديد والتقدم ، ومحمد ﷺ إذا قورن بأى عظيم عرفته البشرية قديما وحديثا فاقه فى كل شىء ، فالحديث عن يوم مولده يذكرنا بنعمة الله على خلقه ، كما يذكرنا بعظمة هذا النبى الأمى فى كل مراحل حياته قبل بعثته وبعدها فلا غرو أن كان للأمة الأسوة الحسنة ، وكان احتفاؤها بيوم مولده ليس إلا مناسبة سنوية تعيد لذاكرة الأمة ما يجب عليها نحو الاعتصام بما بعث به محمد فهو وحده دون سائر التشريعات الوضعية والمفاهيم البشرية الملاذ والملجأ والصراط المستقيم الذى يجب اتباعه لحياة طيبة فى الدنيا ونعيم مقيم فى دار السلام .

---

[1] انظر : حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ، ص ١٠١ ، ط الثالثة .

" يوم البناء بخديجة "

من الأيام المهمة فى حياة محمد ﷺ ، وكان لها أثـر واضـح فـى النهوض برسالته وتحمل أعباء دعوته ، وما لاقاه وتعـرض لـه مـن صنوف الأذى ممن أعرضوا عنه ولم يؤمنوا بما بعث بـه يـوم بنائـه بالسيدة خديجة رضى الله عنها ، فقد كانت امرأة تاجرة ذات ثروة ومـال وجمال ، وكانت تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعلـه لهم ، ولما بلغها عن محمد من صدق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكـرم الأخلاق أرسلت إليه فعرضت عليه أن يخرج بمالها إلى الشام تـاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبـل محمد هذا العرض ، وعاد من رحلته بربح وفـير سـرَّت بـه المـرأة الحازمة اللبيبة ، ولكن سرورها وإعجابها بالرجل الذى اختبرته فى مالها كان أعمق ، وبخاصة بعد أن أخبرها ميسرة بمـا شـاهد وسـمع عـن محمد ، لقد تطلعت المرأة الجميلة الثرية إلى الاقتران بـه ، وأن يكـون بعلاً لها ، ولكن الحياء يغلب عادة على المرأة فلا تجرؤ علـى البـوح بحبها ، بيد أنها فكرت فى حيلة تحقق لها ما تصبـو إليـه ، فأرسـلت صديقة لها لتقف على رأيه فى الزواج منها وكانت هذه الصديقـة مـن الذكاء وحُسن التصرف بحيث أنها بدأت حديثها مع محمد قائلة له : لماذا

لم تتزوج يا محمد حتى الآن وقد بلغت الخامسة والعشرين من عمرك ؟ فرد عليها قائلاً : ومن أين لى المال الذى أتزوج به ؟ فقالت له : وإذا كُفيت المال والجمال فهل تقبل على الزواج ؟ فقال لها : نعم . ولكن من هى التى ترضى بى وهى ذات مال وجمال ؟ فقالت : خديجة بنت خويلد . وهنا استفسر محمد من تلك الصديقة ، وهل ترضى خديجة بى زوجاً لها ؟ فقالت له : دع هذا الأمر لى .

ونجحت صديقة خديجة فى مهمتها ، وبشرتها برغبة محمد فيها ، وتم الزواج على ما جاء به الإسلام بعد من تعاليم وآداب ، فقد عرفت الجاهلية صوراً من النكاح أبطلها الإسلام ، كما عرفت صورة أقرها وهى التى عقد الزواج بها ، وهى الصورة التى يدفع فيها الرجل صداقاً للمرأة ، ويقوم الولى بممارسة العقد ، ويشهد عليه ملأ من الناس ليتوفر له ركن العلانية .

وكان من سنة العرب فى الزواج أن يأخذ أهل الفتاة زينتهم وينتدون فى ساحة دارهم ، وفى صدرهم ولىُّ الفتاة ، وهناك يقدم رجال الفتى ، فإذا اطمأن بالقوم المكان أنشأ ولى الزوج يخطب القوم خطبة ريِّقة مونقة يكشف فيها عما تناجوا به وقدموا له ويقدم فيها المهر عاجله وآجله ، ثم يجيبهم ولى مخطوبتهم بمثلها يُضمنها الرضا بالقوم أخداناً وبصاحبهم صهراً ، حتى إذا انتهيا نُحرت الجُزر ، ومُدت المطاعم وسُمع الغناء من مجالس النساء .

وفى يوم بناء محمد بخديجة خطب أبو طالب خطبة قال فيها :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضِئْضِئ [1] . معد وعنصر مضر ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة ، وهو والله له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد رغب إليكم فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشا [2] .

وردّ ورقة بن نوفل ـ ابن عم خديجة ـ على أبى طالب فقال :

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، فاشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله [3] .

---

[1] الضِئْضِئ : الأصل ، يقال : هو من ضئضئ كريم .

[2] وردت هذه الخطبة فى بعض المصادر مختلفة عما وردت فى بعضها الآخر من حيث الزيادة والنقص وتغيير بعض الألفاظ (وانظر رغبة الأمل من كتاب الكامل ، ج٨ ، ص ١٢٨ ، وشرح مقامات الحريرى ، ج٣ ، ص ٨٨) .

[3] انظر : المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها للأستاذ عبد الله عفيفى ، ج١ ، ص ١٣٧ ، ط القاهرة .

إن زواج محمد بن عبد الله من خديجة وإن كان قبل بعثة محمد قـد تم وفق الصورة الشرعية ، ولا غرو فهو زواج مـن أعـده الله لحمـل رسالته ، وصانه من أوضار الجاهلية ، وكأن الحق سـبحانه أراد بـهذا الزواج أن يعوض محمداً عن عطف الأم الرؤوم وحدب الأب الكريـم ، فوهبه خديجة الفاضلة لتكون له زوجة صالحة ، ورفيقة حيـاة وفيـة ، فعاش الزوجان فى هناء وسعادة ، يغمرهما الحب وتجمعهما الألفة مـع أنها كانت تكبره بنحو خمسة عشر عاماً .

وأتاح هذا الزواج المبارك لمحمد مزيداً من حياة العزلة والتـأمل ، وإن لم يمنعه ذلك من إدارة تجاراته وتدبير معاشه واهتمامه بأسـرته ، وما كانت الزوجة الفاضلة تضيق بعزلة زوجها وإقامتـه الليـالى ذوات العدد فى الغار ، بل كانت تعينه على ما يفكر فيه ، فكانت تحمل إليه مع بعض الخدم الطعام والشراب وهو فى الغار ، والصعود إليـه وعـرٌ ، ولكن الإحساس الذى هيمن عليها وهو أن زوجها نمـوذج فريـد مـن البشر ، وأنها تتوقع له حدثاً جليلاً كان يلغى كل عناء أو مشقة تتعـرض لها . بل كانت تستعذب ما تلاقيه من أجل راحة زوجها .

ولما أوحى إلى محمد ﷺ ، وعاد إلى بيته فزعا هدأت من روعـه وبشرته بالنبوة ، وكانت أول من آمن به من النساء ، ووقفـت بجـواره تشد أزره ، وتخفف عنه آلامه ، لقد كانت له وزير صدق على الإسـلام يشكو إليها همومه فيجد عندها ما ينسيه آلامه ، لقد أعانته بمالها وواسـته

بحسن عشرتها على تحمل أعباء الدعوة ، وهيأت له المنزل السعيد الذى أعانه على تبليغ رسالة ربه . وعاشت معه أربعا وعشرين سنة وبضعة أشهر ، ولم يجمع الرسول بينها وبين زوجة أخرى ، وأنجبت له (رقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة والقاسم وعبد الله) .

توفيت السيدة خديجة لعشر خلون من رمضان سنة عشر من البعثة ، وعمرها خمس وستون سنة ، ودفنت بالحجون ، ونزل النبى ﷺ فى حفرتها ، ولم تكن شرعت الصلاة على الجنائز ، وحزن عليها حزناً شديداً ، وظل طوال عمره يذكرها بالخير ، ويثنى عليها ثناء مستطاباً أثار غيرة بعض نسائه منها وهى فى قبرها ويقول : " آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء ، فلا غرو أن كان يوم البناء بها من الأيام المشهودة فى حياة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

" يوم الوحى الأول (سنة ٦١٠م) "

كان محمد ﷺ قبيل بعثته قد حُبِبَ إليه الخلاء ، فكان يعتكف الليالى ذوات العدد فى غار حراء يفكر فى ملكوت الله ، لقد اصطفاه رب العالمين لحمل الرسالة الخاتمة ، وتبليغ الدعوة العامة ، وكانت تلك الفترات التى هجر فيها الحياة فى مكة ولجأ إلى الغار يقيم فيه وحده لا يهاب شيئاً بمثابة الإعداد للقيام بأمر السماء يبلغه إلى الناس كافة مهما واجهته الشدائد والمصاعب .

ونزل الوحى أول ما نزل على الرسول فى ذلك الغار الذى دخل التاريخ وكان فى نحو الأربعين من عمره ، لقد فوجئ محمد وهو نائم بجبريل يقتحم عليه الغار ، وفى يده صحيفة سطرت فيها الآيات الأولى من سورة اقرأ ، وقدمها لمحمد قائلاً له : اقرأ ، وكان الرسول أمياً لا يعرف الكتابة أو القراءة ، **﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾** [1] فقال : ما أنا بقارئ ، وما كان رد الرسول على جبريل يمثل اعتراضاً على طلب القراءة ، ولكن اعترافاً بأنه يجهل القراءة ، فتكليفه بها لا قبل له به ، وهنا ضمَّ جبريل

---

(1) العنكبوت : ٤٨ .

لرسول فى شدة ثم أرسله ، وقال له : اقرأ ، وجاء رد الرسول عليه مثل ما قاله أولاً ، وكرر جبريل ضم الرسول مرة ثانية ، وطلب منه أن يقرأ ، وقال الرسول : ما أنا بقارئ ، فضم جبريل الرسول للمرة الثالثة وقال له : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [1] .

وقرأ الرسول هذه الآيات ووعاها وهو فى حالة من الفرق [2] والجزع مما رأى وطُلِب منه . وتركه جبريل ، ولم يلبث الرسول أن ترك الغار راجعاً إلى زوجه يرجف [3] فؤاده ، وحين دخل عليها قرأت فى وجهه دلائل ما ألم به وحدث له ، فلم تسأله عن شيء ، وطلب إليها أن تهيئ له غطاء يكنه علَّه يذهب عنه ذلك الروع الذى سيطر على حواسه وملك عليه نفسه :

وبعد لحظات من القلق عاشتها السيدة خديجة رضى الله عنها أخبرها الرسول بما جرى له فى الغار ، واستقبلت الزوجة الشفيقة بزوجها المحبة له ما قصه عليها بنشوة من الغبطة ، لأنها أدركت أن زوجها مقبل على القيام بمهمة جليلة تصل الأرض بالسماء وكان مما

---

(1) العلق : ١ ــ ٥ .

(2) الفرق ، أى الخوف الشديد .

(3) أى يضطرب من شدة الخوف .

قالته له تواسيه وتبشره : أبشر يا ابن عمّ واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة [1] .

وقالت له أيضاً حين قال : " **لقد خشيت على نفسى** " : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق [2] .

وكان ورقة بن نوفل بن أسد ابن عم خديجة ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، ورغبت الزوجة الطيبة فى أن تخبر ابن عمها بما حدث لزوجها ، فقد يكون لديه ما يزيد قلبها اطمئناناً على ما ترجوه لزوجها وتتوقعه له ، ومن ثم انطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ، فقالت له : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس

---

[1] انظر : سيرة ابن هشام ، ج١ ، ص٢٥٤ . .

[2] رواه الشيخان ، ومعنى تقرى الضعيف ، أى تكرمه فى تقديم قِراه ، أى ما يقدم إلى الضيف من الطعام ونحوه ، وتحمل الكلّ ، الكلّ هو الثقل والمعنى تعطى صاحب العيلة ما يريحه من ثقل مؤونة عياله ، وتكسب المعدوم ، أى تعطى الفقير المال ، فالمعدوم هو الفقير ، لأن حياته ناقصة فوجوده وعدمه سواء والنوائب الحوادث ، أى إذا وقعت نائبة لأحد فى حق أعنته فيها .

الذى كان ينزل على موسى ، يا ليتى فيها جذعــاً ، ليـــتنى أكــون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجىّ هم ؟ فقال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى قومــك أنصرك نصراً مؤزراً [١] .

ومكث الوحى فترة لا ينزل على الرسول ، وكــان فــى شــوق لرؤية الملَك الذى جاءه فى الغار ، وتحول الشوق إلى حزن بالغ حين داخله اليأس بأنه قد لا يراه ، إلى درجة أنه آثر الموت على الحيــاة ، ولكن الله الذى اجتباه كان به رؤوفاً رحيماً ، فتبدى له جبريل يبشــره بأنه رسول الله حقاً ، ثم تتابع عليه وحى السماء بعد أن فتر مدة لــم يتفق المؤرخون على مقدارها .

إن أول لقاء بين جبريل ومحمد فى غار حراء كان بداية الإقلاع نحو حضارة جديدة لم يكن للبشرية عهد بها مــن قبــل ، حضــارة تنهض على دعامة الإيمان بوحدانية الحق ســبحانه ، وأن بنــى آدم سواء فى أصل النشأة والمصير ، وإن تفاوتت الألسن والألوان ، فــلا عنصرية ولا طائفية ولا طبقية ولا امتهان للكرامة الإنســانية ، ثــم دعوة العقل للنظر والتدبر وعمارة الأرض بالعدل والخير والفضيلــة والتعاون على البر والتقوى ، ومن ثم كان يوم ذلــك اللقــاء عيــداً

---

[١] رواه الشيخان : والناموس يراد به الوحى ، وجذعا ، أى شاباً قوياً . ويدركنى يومك أى يوم خروجك ومؤزراً ، أى قوياً بالغاً .

للبشرية ينبغى أن نحتفى به فى كل عـــام ، حتـــى لا تنســـى فضـــل الله عليها ، فهى لم تبلغ حضارياً إلى ما بلغت إليه اليوم من التطـــور المادى والتقدم العلمى المذهل إلا بفضل ما بُعـــث بـــه محمـــد ﷺ ، وعليها أن تعتصم بكل ما دعا إليه هذا النبى الأمى حتى تنفض يدهـــا من أوزار هذه الحضارة المادية التى تخطط لعودة الإنسان إلى حيـــاة الوثنية وتشويه الفطرة التى فطر الله الناس عليـــها ، وكـــأن التقـــدم العلمى المذهل لم يكن سبيلاً لخشية الله ، وإنما أصبح وسيلة للبغـــى والاستعلاء والفساد فى الأرض .

" يوم الجهر بالدعوة "

ظل محمد ﷺ يدعو إلى الإسلام سراً ثلاث سنوات ، وآمن به في هذه الفترة أقرب الناس إليه وأعرفهم به وبصدقه وإخلاصه وحسن سيرته كزوجه خديجة ، وعليّ بن أبى طالب ، وكان يومئذ ابن عشر سنين ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وكان قد تبناه فى الجاهلية ، ثم دخل الناس جماعات رجالاً ونساءً ، بعضهم فى إثر بعض حتى فشا ذكر الإسلام ، وتحدث الناس به فى مكة .

وأمره الله تعالى بعد هذه السنوات بإظهار دينه والجهر بدعوته ، **﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون ﴾** [1] . **﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾** [2] .

وبدأ محمد بعشيرته الأقربين ، فدعا إلى طعام فى بيته ، وحاول أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الله ، فقطع عنه أبو لهب حديثه ، واستنفر القوم ليقوموا ، ودعاهم محمد فى الغداة كرة أخرى ، فلما طعموا قال

---

(1) الشعراء : ٢١٤ـــ٢١٦ .

(2) الحجر : ٩٤ .

لهم : ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، فأعرضوا عنه وهموا بتركه ، لكن علياً نهض وهو ما يزال صبياً دون الحلم وقال : أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت . فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم وجعل نظرهم ينتقل من أبى طالب إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين [١] .

وانتقل محمد بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً والرسول يدرك مدى تعلق العرب بعبادة الأوثان ، وأن دعوتهم إلى ترك هذه العبادة ستقابل بمقاومة عنيفة ، وسخرية بالغة ، ولكنه مع هذا يعى ما يجب عليه من التبليغ والإنذار ، دون اعتبار لما قد يصدر عن هؤلاء المشركين من أقوال وأفعال تناهض ما يدعو إليه ، وتلحق الأذى بالمؤمنين به ، وفكر الرسول فى الأمر ملياً ، كيف يسلك مع قومه منهجاً عقلياً يحملهم على الاعتراف بصدقه ، وأنه لا يكذب أبداً . وهداه الله إلى الصعود على جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته " يا صباحاه " وكانت صيحة معروفة مألوفة ، كلما أحس إنسان بخطر عدو يغير على مدينة أو قبيلة على غفلة من أهلها نادى يا صباحاه . فلم تتأخر قريش فى تلبية هذا النداء ، واجتمعوا إليه بين رجل يجئ بنفسه ، وبين رجل يبعث إليه رسوله .

---

[١] انظر : حياة محمد ، ص ١٢٠ .

وبعد أن التأم جمع القوم أخذ الرسول ينادى كل قبيلة باسمها يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤىّ .. ، ثم قال موجهاً الخطاب فى صيغة استفهام إليهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صَدَّقتُمونى ، واستبدت بالقوم حالة من القلق والدهشة ، إنهم على ثقة من أنه لا يوجد عدو يريد أن يغير عليهم ، ولكنهم أمام رجل جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة ، فقالوا : نعم .

وبهذا الاعتراف من الجميع بأن محمداً لا يكذب فيما يقول ، وأنهم يصدقونه فيما يخبرهم به ، ويحذرهم منه ، فاجأ الرسول قومه بقوله : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " . إنه لم يخبرهم بأنه نبى مرسل بأسلوب مباشر ، ليثير فيهم رغبة السؤال عن هذا العذاب الذى لا يعرفون أين ومتى ، ولماذا يتعرضون له ؟ .

وخيم على القوم صمت رهيب ، فلم ينطق أحد منهم بكلمة ، اللهم إلا أبا لهب الذى سخر من محمد وقال عبارته التى سجلها القرآن عليه : تبا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا .. وأرتج [1] على محمد ، فنظر إلى عمه دون أن يرد عليه سفاهته ، وكأنه لم يسمع ما صدر عنه ، ثم ما لبث أن جاء الوحى بقوله تعالى :

---

[1] أرتج عليه بمعنى استغلق عليه الكلام .

﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾ [1] .

وبدأ بهذا اليوم الصراع بين الإيمان والكفر ، والوحدانية والوثنية ، ولكن الظهور فى النهاية كان لكلمة الحق ، وباء الباطل بالخزى والخذلان ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً . ومناط العبرة فى موقف محمد ﷺ فى ذلك اليوم أن على الدعاة أن يأخذوا بالمنهج العقلى الهادئ الذى يخاطب الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، فهذا المنهج هو الذى يكفل للدعاة النجاح فى القيام بمهمتهم ، وبخاصة أن العصر الحاضر لا يقيم للمبادئ والأفكار وزناً ما لم يكن لها سند من التطبيق العملى ، والحجة المنطقية والجدال بالتى هى أحسن ، ومراعاة التفاوت بين الناس فى مداركهم وثقافتهم ، وكان هذا هو منهج الأنبياء جميعاً ، فقاموا بأداء مهمتهم على أحسن وجه .

وهذا المنهج واضح كل الوضوح فى حياة محمد ، فمن يستقرئ أيام سيرته ، ويتابع جهاده الدعوى منذ أُوحى إليه إلى وفاته يدرك أن التخطيط العلمى كان من وراء نجاحه فى تبليغ رسالته ونشر دعوته ، فترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فعلى الدعاة أن يدرسوا سيرة هذا النبى ويتخذوا منها

---

[1] المسد : ١ـ٥ .

الأسوة والقدوة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ [1] .

[1] الأحزاب : ٢١ .

" يوم المساومة "

تدل كلمة المساومة لغة على التفاوض فى البيع والابتياع ويـــراد بهذه المساومة ألا يغالى البائع فى السلعة ، أو يغبن المشـــترى فـــى ثمنها ، وقد أطلقت هذه الكلمة على محاولات الشرك السلمية فى مكـة للحيلولة بين محمد وما يدعو إليه ، وذلك أن هذا النبى الكريـــم بعـــد أن أمره الله بأن يصدع بكلمة الحق لم يجـــد مـــن صنـــاديد الشـــرك إلا استهزاء به وإعراضاً عنه ، ونفوراً منه ، وثورة عليـــه وعلـــى الذين آمنوا به ، ولكن باءت كل أساليب الاضطهاد والعنت التى لجـــأ إليها المشركون بالخسران ، بل إنها زادت المؤمنين صلابـــة وقـــوة واعتصاماً بما آمنوا به .

وفكر المشركون فى الأمر ، وبدا لهم أن لغة الاضطهاد والقـــهر والتعذيب لم تجد شيئاً ، وأن الذين يتبعون محمداً يزدادون يوماً بعـــد يوم ، فآثروا أن يأخذوا بلغة المساومة والاحتواء علهم ينجحون فـــى وقف هذا التيار الجديد ، وقد تعددت محاولات المســـاومة وتنوعـــت أساليبها ، وهى وإن لم تقع فى يوم واحد وإنما تكرر وقوعها فى عدة

أيام ، بيد أنها جميعها تمثل موقفاً واحداً عوّل على صنوف شتى من الوسائل ، ولهذا تعد من حيث الغاية يوماً واحداً .

لقد مشى أولاً بعض سادة قريش إلى أبى طالب الذى كان يحمى ابن أخيه من صلف وغطرسة المشركين ، وكلموه فيه ومما قالوا له : إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة فنكفيكه .

ولم يستجب أبو طالب لسادة قريش ، وإن كان قد تلطف معهم فى القول وردهم رداً رقيقاً ، فانصرفوا عنه وهم يحسبون أنه سيقف دون محمد وما يدعو إليه ، ولكن الرسول مضى فى طريقه يبلغ رسالة ربه غير عابئ بما تضعه الجاهلية من أشواك فى طريقه وطريق الذين اهتدوا بدعوته .

وذهب أشراف قريش مرة ثانية إلى أبى طالب واتسمت لهجتهم فى الحديث معه هذه المرة بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه مما يقوم به .

واحتار الشيخ الوقور بين مشاعره نحو ابن أخيه وإحساسه بالانتماء إلى قومه ، ولم يجد خلاصاً مما هو فيه سوى أن يبعث إلى محمد وينهى إليه ما قاله زعماء قريش ، ثم أردف هذا بقوله : أبق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . وما كاد

أبو طالب يلفظ هذه العبارة فى هدوء يشوبه القلق حتى استولى على الرسول إحساس بأن عمه قد تخلى عنه ولم يعد قادراً على نصرته ، ولكن هذا الإحساس بدده الإيمان الذى لا يُغلب ، فقال الرسول لعمه تلك المقولة التى أصبحت شعاراً للفداء وثبات اليقين : يا عمّ : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته [1] .

ويروى أن الرسول بعد أن قال هذا بكى ثم قام منصرفاً ، وكان الشيخ الوقور لا يتوقع من ابن أخيه ما كان منه ، غير أنه حين فوجئ بهذا الرد الحاسم ، وحين أبصر تلك القطرات الطاهرة تسيل على خديه غلبت على أبى طالب مشاعر الأبوة الحانية فنادى محمداً وقال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشىء أبداً وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم * * حتى أوسد فى التراب دفينا

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه ، وأنه لن يحول بينه وبين تسفيه أحلام أهل مكة والنيل من آلهتهم ، وهنا قرر قادة الشرك أن يختاروا فتى من أجمل فتيان قريش هو عمارة بن الوليد ، وذهبوا به إلى أبى طالب وعرضوا عليه أن يتخذ عمارة ولداً له ويسلم إليهم ابن أخيه ليفتكوا به ، وجاء رد أبى طالب معبراً

---

[1] سيرة ابن هشام ، ج١ ، ص ٢٨٥ ، والسيرة النبوية لابن كثير ، ج٢ ، ص ١٢٢ .

أصدق تعبير عن سخافة ما عرضه سادة قريش عليه ، فقد قال لهم : والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ، هذا والله ما لا يكون أبداً [1] .

وأيست قريش من أبي طالب وأيقنت أنه لن يتخلى عن ابن أخيه ، وأن عليها لكي تحمي وحدتها وآلهتها أن تقوم بعمل جديد ظنت أنه سيحقق ما تحرص عليه وهو القضاء على محمد ودعوته .

وكان هذا العمل الذي ظنت قريش أنه سيضع حداً لهذا الداعي الجديد هو الإمعان في تعذيب من آمن به واتبع رسالته وصبأ عن دين آبائه .

وما حقق هذا العمل لقريش ما ترجوه وتحرص عليه ، وأفزعها أن بعض رجالات مكة يؤمن بالرسالة الخاتمة ، لأن هذا يعني أن قوة محمد تنمو ، وأنه لو ترك هكذا فإن يوماً لابد آت فيه تفقد قريش كل ما تذود عنه من معبوداتها وأعرافها وتراث آبائها .

وفكر بعض سادة قريش أن يذهب إلى محمد يكلمه ويعرض عليه ما رأى أنه قد يكفه عن المضي في طريقه ، وأثيرت الفكرة في نادي قريش ، فرحب المشركون بها لأن التعذيب لم ينجح في وقف التيار عن اندفاعه ، وقام عتبة بن ربيعة ، وقال للرسول بعد أن أشار إلى دعوته التي فرقت كلمة قريش وسفهت أحلامها وعابت

---

[1] المصدر السابق ، وتسومونني ، تكلفوني .

آلهتها : يا ابن أخى ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى فيه .

وقال الرسول بعد أن سمع هذا الذى عرضه عتبة : فاسمع منى ، وقال عتبة : افعل . فتلا محمد من أول سورة السجدة إلى أن بلغ آية السجدة فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت ذاك .. وانصرف عتبة إلى أصحابه مأخوذاً بروعة القرآن وسمو فصاحته [1] .

وفى محاولة من المشركين لاحتواء الرسول ﷺ أو مساومته عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه سنة على أن يعبد آلهتهم سنة فنزلت سورة الكافرون ، تعلن فى جلاء الحد الفاصل بين الإيمان والكفر وأنه لا التقاء بينهما بحال من الأحوال [2] .

---

[1] انظر : حياة محمد ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

[2] انظر : أسباب النزول للواحدى ، ص ٥٠٥ ، وسبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ج٢ ، ص ٥٥٩ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

إن الشرك بذل كل ما يستطيع من أجل محاربة محمد وإجـهاض رسالته فقد آذاه ، وآذى أتباعه إيذاءً بالغاً ، ولجأ إلى المساومة عـدة مرات وأخفق فى كل ما بذل ؛ لأن الباطل مهما بغى وطغـى فـإن الحق سيدمغه ، وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

" يــوم الطائف "

توفى عم الرسول أبو طالب الذى كان يحمى ابن أخيه من بطش قريش فى السنة العاشرة من المبعث ، وتوفيت بعــده بقليــل السـيدة خديجة رضى الله عنها ، وقد حزن الرسول لموتهما حزناً شديداً حتى سمى العام الذى ماتا فيه عام " الحزن " .

وبموت أبى طالب وخديجة تتابعت المصــائب والشــدائد علــى رسول الله ﷺ ، فخديجة رضى الله عنها كان سنداً لزوجها بما توليــه من حبها وبرها ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانـــها ، لقــد كانت وزير صدق على الابتلاء يسكن إليها فتهون عليه كــل شــدة ، وتزيل من نفسه كل خشية .

وأما أبو طالب فقد كان لابن أخيه حِمى وملاذاً مـــن خصومــه وأعدائه ، ومن ثم تجرأت قريش على رسول الله ﷺ بعد موت زوجه وعمه ، وأسرفت فى إيذائه والإساءة إليه . فقد روى عن ابن مسـعود قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت ، وأبو جــهل وأصحابــه جلوس ، وقد نُحِرت جزور بالأمس فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلـــى جزور بنى فلان فيضعه بين كتفى محمد إذا سجد ؟ فـــانبعث أشــقى

القوم فآخذه ، فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر ، لو كانت لى منعة طرحته من ظهره والنبى ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة . فجاءت ــ وهى جويرية ــ فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم [1] .

كذلك يروى أن بعض سفهاء قريش نثر على رأس الرسول تراباً فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إحدى بناته تغسله وتبكى ، ورسول الله ﷺ يقول : لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك ، ثم كان يقول بين ذلك : ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب [2] .

وضاق الرسول بمكة بعد أن ضاقت به ، وتنكر له الناس حتى أقربهم إليه ، وأدناهم منه ، فخرج إلى ثقيف بالطائف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار [3] ، وبين مكة والطائف نحو خمسة وثمانين ميلاً ، والطريق إليها وعر يخترق سلسلة من الجبال ، وكله صعود متصل ، إذ تقع الطائف على ارتفاع شاهق بالنسبة لمكة مما يجعل الرحلة إليها شاقة على السيارات ، حتى بعد تمهيد الطريق

---

(1) انظر : فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ، ص ١٢٩ .

(2) سيرة ابن هشام ، ج١ ، ص ٤١٦ .

(3) انظر : على هامش السيرة للدكتور / طه حسين ، ج٣ ، ص ١٤٠ .

ورصفه ، فكيف قطع محمد ﷺ ــ فى ذهابه وإيابه ــ هذا الطريق الصاعد الوعر الموحش على قدميه ؟ إنها العقيدة التى يهون دونها كل جهد أو عناء ، ولم يكن مع الرسول فى هذه الرحلة غير مولاه زيد بن حارثة .

وحين انتهى الرسول إلى الطائف عمد إلى جماعة من أشراف [1] ثقيف ودعاهم إلى الإسلام ، فسخروا منه وهزئوا به ، ومكث الرسول يتردد على منازل القوم عشرة أيام وقيل شهراً ، فما رأى منهم جميعاً إلا رداً منكراً ، فلما يئس عليه السلام من خيرهم ، طلب منهم أن يكتموا عليه أمره معهم حتى لا تزداد عداوة أهل مكة له ، وشماتتهم به ، ولكن القوم كانوا أخس مما ينتظر ، فقد قالوا له : اخرج من بلدنا ، ولم يكتفوا بذلك فقد حرشوا عليه الصبيان وأغْروا به السفهاء والعبيد يسبونه ويَحْصُبونه [2] ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس فى صورة كريهة تبعث على الأسى والألم ، وزيد بن حارثة يحاول ــ عبثاً ــ الدفاع عنه حتى شجَّ فى ذلك رأسه .

---

[1] لقد التجأ الرسول إلى ثقيف بالطائف لأنهم كانوا أخواله .

[2] لقد بلغ من سفاهة وقسوة أهل الطائف أن سفهاءهم وعبيدهم كانوا يرمون عراقيب الرسول بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء . انظر (سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ، ج٢ ، ص ٥٧٧) .

وكان الرسول يحاول أن ينأى عن هؤلاء السفهاء الذين تملكتهم حمَّ السخرية والإيذاء ، ولكنهم ظلوا يطاردونه ويركضون وراءه حتى وجد نفسه أخيراً يدخل بستاناً ، فانصرفوا عنه وقد أدموه وأرهقوه كل الإرهاق .

وأوى الرسول إلى ظل شجرة فى بستان ابنى ربيعة بعد هذه المطاردة المؤلمة وقد عز عليه ما كان من ثقيف التى سعى إليها يدعوها للتى هى أقوم ويلتمس عندها الجوار والنصرة ، فلم يجد منها إلا القسوة والجفوة وسوء الخلق .

ولما رأى ابنا ربيعة الرسول وما لقى من السفهاء والأرقاء تحركت له صلة الرحم فدعوا غلاماً لهما يقال له عداس ـ فقالا له : خذ هذا القطف من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال : بسم الله ، ثم أكل . فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله ﷺ : ومن أى البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ قال : نصرانى وأنا من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ ، من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، قال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت منها ـ يعنى من أهل نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون

ما يونس ، فمن أين عرفت أنت يونس بن متى وأنت أمى فى أمة أمية . قال رسول الله ﷺ : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى . فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه ، وقد شاهدا ما كان من عداس مع رسول الله ﷺ : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل ، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى . قال : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

ولم يأبه عداس بقول سيده ودخل فى الإسلام ، ولما تجمع المشركون لقتال المسلمين فى بدر خرج ابنا ربيعة ، وأمرا غلامهما بالخروج معهما ، فقال لهما : قتال ذلك الرجل الذى رأيت فى حائطكما تريدان ؟ فوالله ما تقوم له الجبال . فقالا : ويحك يا عداس ، لقد سحرك بلسانه [1] .

وما كاد الرسول يأخذ قسطاً يسيراً من الراحة بعد تلك المطاردة المؤلمة حتى ذكره ما حدث فى الطائف بما كان من أهل مكة بعد وفاة عمه وزوجه فدعا ربه قائلاً : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى

[1] انظر : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ، ج٢ ، ص ٥٧٧ .

عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك [1] .

وكان يوم الطائف أو ثقيف لما أومأت إليه آنفاً أشد الأيام على رسول الله ﷺ ، وظل عليه الصلاة والسلام يذكر هذا اليوم وما كان فيه من حماقة أهل الطائف ، فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ : هل أتى عليك يوم أشد من أحد ؟ قال : لقيت من قومى ما كان أشد ، قال : وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت على وجهى وأنا مغموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب [2] ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىَّ وقال : يا محمد أنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت ، فإن شئتَ أن أطبق عليهم

---

[1] سيرة ابن هشام ، ج١ ، ص ٤٢١ .

[2] موضع تلقاء مكة على مرحلتين منها .

الأخشبين [١] فقال رسـول الله ﷺ : بـل أرجو أن يخـرج الله مـن أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً [٢] .

هذا هو يوم الطائف ، يوم بلغت فيه الجهالة ، والضلالـة ذروة المنكر والشر ، كما تجلت فيه بعض أخلاق النبى الأمى الذى بعثـه ربه رحمة للعالمين ، وأثنى عليه فى كتابه المبين بقوله تعالى :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [٣] .

---

[١] الأخشبان : جبلان بمكة .

[٢] انظر : الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ، ص ٩٨ .

[٣] القلم : ٤ .

يوم الإسراء والمعراج

إن محمدًا ﷺ لم يستطع أن يدخل مكة بعد يوم الطائف إلا في جوار المطعم بن عدى ، وكانت قريش قد عرفت ما جرى لمحمد فى هذا اليوم فازدادت إيذاء له ، ولكن لم ينل هذا الإيذاء من همته في تبليغ دعوته ، فجعل يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، فلم يلق منهم إلا ازورارًا عنه وعدم اكتراث به ، وأدخل هذا السلوك على قلب محمد وأصحابه همًّا وعزلة ، فكان من رحمة الله بنبيه وفضله عليه أن أخرجه مما يعانى بالإسراء إلى أرض الأنبياء والعروج إلى السماوات العلا ليرى من آيات ربه ما ينسيه كل مشقة وعناء ، وليكون الإسراء والمعراج بلسمًا ودواء ، ومنحة إلهية عظيمة لم يحظ بها قبل محمد نبى من الأنبياء . وما جرى بين العلماء من جدل حول الإسراء والمعراج ، وهل كان بالروح فقط ، أو بالروح والجسد لا مجال للحديث عنه ، وإن كانت الآية القرآنية فى مستهل سورة الإسراء تومئ إلى أنه كان بالروح والجسد وكان يقظة لا منامًا ، فهى تقول : "**سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى**

المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير " والتعبير بكلمة عبدنا تشمل الروح والجسد معًا ، ولا ضرورة لتأويل يخرج الكلمة عن مدلولها الظاهر .

ولا مجال أيضًا لتفصيل القول فيما شاهد الرسول من آيات سواء فى رحلته الأرضية أو السماوية ، فالحديث عنها فى الماضى والحاضر يملأ آلاف الصفحات ، ولكن الغرض الأول من الحديث عن ذلك اليوم المشهود فى حياة محمد ﷺ هو التماس العبرة ، وتذكير الأمة بما يجب عليها نحو حماية أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وأن العهدة العمرية أمانة ومسئولية ويجب الالتزام بها ، وتنفيذ بنودها إلى يوم الدين .

إن محمدًا ليلة الإسراء والمعراج كان فى بيت ابنة عمه هند بنت أبى طالب ، وكنيتها أم هانئ ، ومن هذا البيت أسرى به إلى المسجد الأقصى ، ثم عُرج به من هذا المسجد إلى السماوات العلا حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ثم عاد إلى المسجد مرة أخرى ، ومنه رجع إلى مكة ، حدث كل هذا ليلاً وفى فترة زمنية لا يعلم مقدارها إلا الله . وفرضت عليه الصلوات الخمس فى تلك الليلة .

وفى الصباح قصَّ محمد عَلَى أم هانئ ما رأى فى رحلتيه ، ويبدو أنها تعجبت مما سمعت ، أو خافت على الرسول ﷺ من أن تسرف قريش فى إيذائه والنيل منه ، إذا تحدث بما رأى ، فقالت له : يا نبيّ الله لا تحدث الناس فيكذبوك ويؤذوك . ولم يستجب محمد لنصيحة أم هانئ وحدث قومه ، وكان حديثه أشبه ما يكون بزلزال رَجّ أركان مكة كلها ، وجعل أهلها فى أمر مريج .

لقد كان الوحى الذى ينزل على محمد بالقرآن مقبولاً بوجه عام لدى أهل مكة وإن لم يؤمنوا به ، وإنما كانوا يصفونه بالشعر تارة ، وبالسحر تارة أخرى ، وأن الجن يمدون محمدًا بما يتلوه عليهم ، أو أنه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

أما أن يذهب إلى أنه انتقل من مكة ليلاً إلى أرض فلسطين ، وصلى بالأنبياء فى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السماء ، ثم عاد إلى مكة قبل انبلاج الصبح فهذا أمر حارت فيه العقول والأفكار ، وأثار ضجة كبرى فى العالم كله وفى جميع الأوساط وبين مختلف الشعوب لا فرق فى ذلك بين الأمم التى تدين بالإسلام وبين غيرها [1]. أن تكمن المشكلة التى أذهلت الألباب فى عدم الإيمان بنبوة محمد وأن الإسراء والمعراج معجزة إلهية وأن الحق سبحانه

---

(١) انظر مجلة منبر الإسلام عدد رجب سنة ١٣٩٣هـ .

لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وقالوا لمحمد : نحن نضرب آباط الإبل شهرًا فى الذهاب إلى الشام وشهرًا فى العودة منها فكيف يقبل عقلاً ما تدعيه ذهابك وأوبتك فى قطع من الليل ؟ وجادلوا أن يثبتوا كذب محمد بأن طلبوا منه أن يصف لهم الأقصى ، ومنهم من شاهده فى رحلتى الشتاء والصيف ، فوصفه لهم وصفًا دقيقًا يقول صلى الله عليه وسلم : فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس علىّ بعض النعت ، قال : فجئ بالمسجد ، فنعته وأنا أنظر إليه [1] لقد نقل الحق سبحانه المسجد الأقصى لنبيه ، كما نقل عرش بلقيس فى أقل من طرفة عين ، فكان عليه السلام يراه وهم لا يرونه .

ولم يكتف الرسول بوصف المسجد ، وإنما وصف لهم أيضًا فى دقة وتفصيل قافلتهم التى كانت فى الطريق إلى مكة وحدد موعد وصولها . وذكر لهم من حاديها ومن فى أولها ومن فى وسطها ومن فى آخرها وصفًا دقيقًا تحققوه عند وصول القافلة ، فكان ذلك سببًا فى دحض باطلهم ، وبطلان مزاعمهم ومفترياتهم [2] .

---

(١) المنتخب من السنة جـ١ ص١٠٥ ، والتبس أى اختلط واشتبه .

(٢) انظر مجلة منبر الإسلام عدد رجب ١٣٨٣هـ صـ٩٣ .

ومع أن محمدًا ﷺ دحض بوصفه الدقيق مزاعـــم المشـــركين ، وبين لهم أنه على حق فيما يقول اتخذت قريش من معجزة الإســـراء والمعراج وسيلة للتشنيع على محمد ، وظننت أن هذه المبالغـــة فـــى الانتقال ليلاً إلى الشام ، والعروج إلى السماء والتى تجاوزت منطـــق العقل ستكون سببًا فى انصراف أصحاب محمد عنه ، وتكون ســـببًا أيضًا فى منع المترددين عن التفكير فى متابعة محمد والتسليم بدينـــه ولكن هذا التشنيع لم ينتج عنه إلا اهتمام الناس فـــى مكـــة وحولـــها بمحمد وبمحاولة التعرف عليه والتحقق من أخلاقه والاســـتماع لمـــا يقوله بشأن هذا الحدث الخطير ، وبهرت الكثـــيرين منـــهم الآيـــات القرآنية التى سجلت الإسراء والمعراج بما فيها من بلاغـــة ســـاحرة وبما تنطوى عليه من تكريم للنبى الأمى [١] .

وأدت محاولة قريش الآثمة إلى عكس ما كـــانت تتطلـــع إليـــه وتحرص عليه فدخل كثير من الناس بسبب الإسراء والمعـــراج فـــى دين الله أفواجًا .

صحيح أن بعض من ارتضوا الإسلام دينا ، ولم يكن الإيمان قـــد رسخ فى قلوبهم هجمت عليهم عواصف الشك ، ومنهم من ارتد كمـــا جاء فى بعض الآثار ، ولكن جمهور المؤمنين صدقوا نبيـــهم فيمـــا

---

(١) انظر الإسلام فى مكة ومقاومة المشركين له ، للدكتور أحمد شلبى ص٩٨ .

قال ، لأنهم صدقوه فى خبر السماء أو ما يوحى إليه من الكتاب فكيف ينكرون عليه ما يحدثهم به عن رحلته ليلا إلى فلسطين وعروجه إلى السماء ؟ .

وإذا كانت معجزة الإسراء والمعراج تكريما وترويحا للرسول ﷺ ، وخففت عنه ما تعرض له فى مكة وغيرها من عنت وطغيان ، وزادته يقينًا بأن كيد البشر لا شئ إذا قيس بقدرات الله ، وأن الحق جل وعلا عاصم نبيه من كيد المبطلين والمشركين فإن فرضية الصلاة فى هذه المعجزة تشعر بأنها حقًا عمود الدين وأن الحفاظ عليها فى مواقيتها من شواهد الإيمان الصادق واليقين الراسخ ، وأن الارتباط بين الأرض والسماء سنة كونية وأن سعادة الإنسان فى الدارين مناطها تحقيق هذا الارتباط على نحو مشروع .

ولأن هذه المعجزة كانت قبل الهجرة إلى يثرب بفترة زمنية محدودة وضعت المسلمين قبل هذه الهجرة فى بوتقة اختبار لتنقيتهم من المترددين قبل أن يبدأ ذلك الشوط الحافل بالجهاد والتضحية بالمال والأهل والوطن .

ويعد الإسراء من مكة حيث بنى إبراهيم الكعبة إلى بيت المقدس حيث دعوة موسى وزكريا ويحيى وعيسى ـ يعد فى الفكر الإسلامى بمثابة رحلة تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من إبراهيم

إلى محمد ، وبمثابة إعلان وراثة خاتم الرسل لمقدسات من سبقه من رسل الله ، وأن رسالته مشتملة على هذه المقدسات ، وصدق الله العظيم إذ يقول : **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾** [1].

فدين الله الذى بعث به جميع الأنبياء واحد من حيث الأصول الكلية وهى الإيمان بوحدانية الله ، والإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، والدعوة إلى العمل الصالح ، ولهذا فلا مجال للتعصب الدينى والإيمان ببعض الأنبياء دون بعضهم الآخر ، وما ينجم عن هذا من صراعات دموية وغير دموية ، وهى آية على غياب الفهم الصحيح للدين .

وأخيرًا تذكرنا معجزة الإسراء والمعراج بالمسئولية المقدسة نحو الأماكن المقدسة فى فلسطين وحمايتها والحفاظ عليها ، وهى مسئولية الأمة كلها ، وليست مسئولية أهل فلسطين وحدهم .

---

(١) انظر الإسلام فى مكة ومقاومة المشركين له ، ص١٠٨ .

يوم الهجرة

تعد الهجرة النبوية من مكة إلى يثرب من أهم الأحداث الفاصلة في حياة محمد ﷺ ، وفى تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد كانت نهاية لعهد تعرض فيه المسلمون لألوان مختلفة من الاضطهاد والأذى ، فما ضعفوا وما استكانوا ، وبداية لمرحلة جديدة فى تبليغ الإسلام ونشر دعوته ، كما كانت بداية لقيام الدولة الإسلامية التى قادت البشرية إلى حضارة إنسانية خالدة فلا غرو أن اتخذ المسلمون من هذه الهجرة مبدأ للتاريخ دون سواها من الأحداث والأيام .

والهجرة بمقدماتها وما استغرقته من زمن فى قطع المسافة التى تبلغ نحو أربعمائة وخمسين كيلو مترا أخذت نحو أسبوعين لا يومًا واحدًا ، ومن ثم فإطلاق كلمة اليوم على هذا الحدث الجليل ليس إلا تجوزاً وتعبيرًا عن كل ما يتعلق بالهجرة من حيث الإعداد لها والتخطيط لنجاحها .

على أن الحديث عن يوم الهجرة خاص بهجرة الرسول وصاحبه أما سائر المسلمين فقد أذن لهم بالهجرة قبل هجرة نبيهم بنحو عام ، وكانوا يتسللون لواذًا فى جنح الليل ، اللهم إلا عمر بن الخطاب الذى

أعلن عن هجرته أمام سادة قريش ، وهددهم بقتل من يتعرض له ، وخرج معه نحو عشرين من المستضعفين .

والهجرة لأهميتها كتب عنها المؤرخون والباحثون آلاف الصفحات تناولت أحداثها ومكانتها البالغة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، وتكاد هذه الأحداث من كثرة ما كتب ويكتب عنها فى مطلع كل عام جديد يعرفه جمهور الأمة ، وإن لم تكن معرفة وافية أو دقيقة ، ولهذا كان الأجدى فى الحديث عن يوم الهجرة وهو تجاوز الكلام عن وقائعها وأسبابها إلى الحديث ولو فى إجمال عن أهم عظاتها والدروس المستفادة منها .

وينبغى التذكير بأن المحرم لم يكن شهر الهجرة ، وإنما كانت الهجرة فى نهاية شهر صفر ، وبداية شهر ربيع الأول .

والهجرة لم تكن فراراً من الكفر وطغيانه ، ولكنها كانت تحولاً من بيئة ضاقت ذرعًا بكلمة التوحيد ، وأسرفت فى إيذاء ومطاردة الذين ارتضوا الإسلام دينًا إلى بيئة أخرى استجابت فى طواعية للحق ، وكان عزيزًا على هؤلاء المهاجرين الذين تركوا وطنهم وما فيه من ذكريات طفولتهم وشبابهم أن يخرجوا من مكة ، ولكن الإيمان الذى ملأ قلوبهم ، وطهر وجدانهم كان أعز وأغلى من كل شئ ، لقد خلفوا وراءهم ما خلفوا من متاع الدنيا دون أن يأسوا عليه فهمُّهم الأول أن ينصروا دعوتهم ويمكنوا لها فى دنيا الناس .

والهجرة إلى هذا لم تتجح ذلك النجاح الباهر الذى خلده التاريخ إلا أنها كانت تطبيقًا عمليًا لخطة علمية دقيقة ، وهذه الخطة بدأت قبل الهجرة إعدادًا لها ، وصاحبتها فى مراحلها حتى انتهت بدخول النبى ﷺ يثرب .

إن الهجرة لم تكن عملاً عشوائيًا أو ارتجالياً ، وإنما كانت عملاً أسّس على التخطيط والتنظيم وبخاصة بالنسبة للرسول والصدِّيق .

وتمثلت الخطة العلمية التى فوتت على قريش هدفها فى قتل محمد وصاحبه فيما يلى :

أولاً : سرية اللحظة التى خرج فيها الرسول وأبو بكر من مكة ، أو بعبارة أخرى تضييق دائرة الذين يعرفون هذه اللحظة بحيث لم تشمل سوى أفراد [1] قلائل ممن لا يشك فى إخلاصهم وصدق جهادهم .

ثانيًا : خداع قريش والتجسس عليها للوقوف على خططها بعد أن فشلت فى قتل الرسول وهو فى بيته ، حتى يأخذ حذره ، ويتصرف طوعًا لما تدعو إليه الأحداث ، وتوحى به الأخبار .

لقد كان الرسول وصاحبه وهما فى الغار يعرفان كل ما كان يجرى فى مكة ، لأن عبد الله بن أبى بكر كان يقضى نهاره مع

---

(١) قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله ﷺ حين خرج إلا على بن أبى طالب ، وأبو بكر وآل أبى بكر . (سيرة ابن هشام جـ٢ ص١٢٩) .

قريش وهو فتى ذكى ، يسمع ما يأتمر به رجالاتها ، ثم يتسلل فى المساء إلى الغار ليخبرهما بما سمع ، وكان ابن فهيرة مولى أبى بكر يمضى بالغنم على آثار عبد الله وأسماء ذات النطاقين التى كانت تحمل الطعام والشراب إلى الرسول والصدِّيق وهما فى الغار .

وللأخذ بكل وسائل التخطيط العلمى للهجرة أخفقت قريش فى تتبع الرسول والإمساك به ، فضلا عن حماية الله له ، وهى حماية لا تعنى ترك الأخذ بالأسباب ، فالله يسبغ نعمته على عبده إذا أدى ما وُجب عليه فى اتقان وإحسان ، ثم فوض ما لا قبل له به إلى خالقه ..

وكان اليوم الذى وطئت فيه قدم الرسول المدينة يوم عيد ، ومهرجان فرح وسرور ، اشترك فيه الجميع من الرجال والنساء والصغار والكبار ، وتبارى الأنصار فى الحفاوة بنبيهم وإخوانهم المهاجرين ، إنه يوم سجله التاريخ شاهدا على أن الإيمان يصنع المعجزات وأن العقيدة الصادقة يهون فى سبيلها كل مرتخص وغال .

إن الهجرة درس عملى للأمة فى انتصار الحق مهما كاد له الباطل ، كما أنها درس للأخذ بالمنهج العلمى فى كل شئ ، فهذا المنهج هو المعبر عن روح الحضارة والتقدم لأمة من الأمم ، فحيث يوجد منهج توجد حضارة ، لأنه فى جوهره حشد للطاقات وتجميعها

والتنسيق بين معطياتها ، فتكون أغنى فاعلية ، وأكـــثر قـــدرة علـــى التجديد والعطاء .

والهجرة إلى هذا تذكرنا بأن الإسلام ديـــن عـــزة وحريـــة وأن المؤمنين به لا ينامون على ضيم ولا يرضون بالدنيـــة فـــى دينـــهم ودنياهم ، ولايبخلون على عزتهم وحريتــــهم بأموالـــهم وأنفســـهم ، وفرض عليهم جميعا أن يهبوا ليدرأوا عن كل مسلم ــ مـــهما نـــأت دياره ــ الظلم والعدوان ، فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضـــو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

والمسلمون اليوم يواجهون عدوانا لم يسبق أن واجهوا مثله فـــى تاريخهم الطويل ، إنه عدوان يريد لهذه الأمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس أن يضمحل كيانها ، ويتوقف تقدمـــها وتحيـــا ذليلـــة مستضعفة إن لم يتمكن من إفنائها أو تحويلها إلى لاجئيـــن يعيشـــون على الإحسان والإعانة . وإزاء هذا الخطـــر لا ســـبيل إلـــى صـــده والحيلولة بينه وبين ما يخطط له غير وحدة قوية واعتصام صـــادق بتعاليم ديننا فى كل شأن من شئون الحياة قولا وعمـــلا ، أو شـــكلا ومضمونا ، والله المستعان .

يوم الفرقان

من الأيام الحاسمة فى حياة محمد ﷺ يــوم بــدر الــذى ســماه القرآن الكريم يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، وقــد وردت كلمــة القرآن فى الكتاب العزيز بمعنى الحجة وبمعنــى النصــر وبمعنــى الكتاب المنذر .

وكان يوم بدر يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من الســنة الثانية للهجرة ، فى هذا اليوم دارت أول معركة مسلحة بين الإيمــان والكفر كانت عاقبتها نصــرًا مــؤزراً للمؤمنيــن وخذلانــاً مــهينًا للكافرين ..

وترجع أسباب هذه المعركة إلى أن كفار مكة أخرجوا المؤمنيــن منها ، وترك هؤلاء أموالهم وديارهم فداء لعقيدتــهم ، لقــد حــاولت الجاهلية ما استطاعت وَأْدَ الدعوة الجديدة ، بَيْد أن كـــل محاولاتــها باءت بالهزيمة ، ومع هذا لم تدع الدعوة الإسلامية فى مهجرها آمنــة تبلغ كلمة الله ، فلقريش مكانتها بين القبائل العربية ، وكــانت هــذه المكانة تحول بين الدعاة وتبليغ كلمة الله ، فكان لا مناص من عمــل إيجابى يقضى على ما كانت تتمتع به قريش مــن نفــوذ ، ليصبــح

الطريق إلى الإسلام خاليًا من الأشواك والعقبات ، فكان الإذن للمؤمنين بالقتال انتصاراً للحق والعدل ، وقضاء على الباطل والظلم قال تعالى : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾ (١) .

وهذا الإذن بالقتال لم يكن حبًا فى القتال ذاته ، فالإسلام دين سلام ، ولكن هذا الإذن من أجل تحقيق الحرية الدينية لكل إنسان ، وأيضًا من أجل أن تظل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم يخضع القتال فى الإسلام لمبادئ وقواعد تجعل منه وسيلة لنصرة المستضعفين ومقاومة الضالين والمفسدين وحماية الحياة الإنسانية من الطغاة والقاسطين .

وبعد الهجرة فى السنة الثانية كانت المعركة المسلحة الأولى فى تاريخ الإسلام ، وهذه المعركة فرض على المسلمين أن يدخلوها دون أن يكونوا قد هيأوا أنفسهم لها ، فهم قد خرجوا من المدينة لينالوا من القافلة التجارية التى عاد بها أبو سفيان بن حرب من الشام بأموال وفيرة .

---

(١) الحج : ٣٩، ٤٠ .

ولم يكن المسلمون هذا قطاع طرق ، ولكنهم خرجوا ليحصلوا على بعض ما تركوا من أموالهم فى مكة قبل الهجرة ، استولى عليها المشركون .

وعرف أبو سفيان أن المسلمين يتربصون به ليغنموا من القافلة ، فغيَّر مسارها ، ونجا بالتجارة ، بيد أنه كان قد بعث لقريش يستحثها لنجدته ، فخرجت بخيلائها وصناديدها لا من أجل استنقاذ الأموال فحسب ، وإنما من أجل الأخذ على أيدى هؤلاء الذين تجرأوا على التعرض لتجارتها ، وليعرف العرب عنهم أنهم قوة لا تغلب فلا يزالون يهابونهم ، ووجد المسلمون أنفسهم فى مواجهة قوة تربو ثلاثة أضعاف على عددهم ، ولديها من الأسلحة والدواب ما ليس لدى المسلمين ، ولكنهم مع هذا لم يهابوا المواجهة ، ولن يقولوا لمحمد كما قالت اليهود لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن يقولون له : أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ودارت المعركة بين الفئة القليلة فى عددها وعتادها ولكنها كثيرة فى إيمانها وفدائها ، وبين الفئة الكثيرة فى عددها وأوزارها ، ولكنها قليلة أو فقيرة فى عقيدتها وأهدافها ، ووقف الرسول القائد يستنصر ربه حتى أشفق عليه أبو بكر من كثرة دعائه ، وأنزل الله ملائكته فقاتلوا مع المسلمين جموع المشركين ، وقد سجل القرآن الكريم هذه

الغزوة فى سورة الأنفال ، كما جاء الحديث عنـــها فـــى ســـورة آل عمران ، وأسفرت المعركة التى قادها الرسول لأول مرة فى تـــاريخ البعثة عن نصر مبين للمسلمين وهزيمة منكرة للمشركين ..

وقد غنم المسلمون فى هذه الغزوة غنائم كثـــيرة مـــن الـــدوابّ والثياب وقد استشهد فيها أربعة عشر صحابيًا ، وقتل ســـبعون مـــن المشركين كان من بينهم فرعون هذه الأمة ورأس الكفر أبو جـــهل ، وكذلك أُسِرَ من كفار قريش نحو سبعين رجلاً ، وقد استشار الرســـول الصحابة فى شأن الأسرى فكان من رأى أبى بكر العفو عنهم وأخـــذ الفدية منهم لعلهم يهتدون بعد ذلك ، وكان من رأى الفاروق أن يقتلـــوا لأنهم كذبوا رسولهم وآذوه وآذوا أصحابه ، ومال الرسول إلـــى رأى الصديق ، ثم نزل قول الله تعالى :﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أســـرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخـــرة والله عزيز حكيم* لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم* فكلوا مما غنمتم حلالاً طيبًا واتقوا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ [1].

ويراد بالإثخان التقتيل حتى تضعف شوكة المشـــركين وتشـــتد شوكة المسلمين ، وهذا ما كان ينبغى قبل أن يكون للنبى والمســـلمين أسرى يستبقونهم ويطلقونهم بالفدية كما حدث فى بدر ، ولهذا عـــاتب الله المسلمين فى ذلك .

---

(١) الأنفال : (٦٧ـــ٦٩) .

وهناك معنى آخر يراد تقريره فى النفوس وتثبيته في القلـــوب ، ذلك هو المعنى الكبير الذى عبر عنه عمــر رضــى الله عنــه فــى صرامة ونصاعة وهو يقول : " وحتى يعلم الله أن ليس فـــى قلوبنـــا هوادة للمشركين " (١) .

إن يوم الفرقان يوم فاصل فى تاريخ الإسلام ، كرمـــه الله بـــأن كان فى شهر رمضان ، وأنزل فيه الملائكة للمشاركة فى الجهاد مـــع الفئة المؤمنة ، وقيادة النبى للمعركة ، وحضور الشياطين الذين زينوا للمشركين ما جلب عليهم الخذلان على الرغم مـــن كـــثرة عددهـــم وأسلحتهم .

وفى هذا اليوم خير برهان على أن الذيـــن ينصـــرون الله فـــى أنفسهم ويأخذون بكل الوسائل المشروعة لما يقدمون عليـــه فـــإن الله سبحانه لن يتخلى عنهم ، ويكون الظهور لهم على أعدائهم مهما تكـــن قوتهم ، ومن هنا لا يهاب المسلم قوة في الأرض ما دام يحمـــل فـــى قلبه قوة الإيمان ، والحرص على النصر أو الشـــهادة **﴿ إن تنصـــروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾** (٢) **﴿ كم من فئة قليلـــة غلبـــت فئـــة كثيرة بإذن الله ﴾** (٣) .

---

(١) انظر فى ظلال القرآن الكريم لسيد قطب مجلد ٤ صـ٦٢ .

(٢) محمد : ٧ .

(٣) البقرة : ٢٤٩ .

يوم أُحد

إن قريشًا لم تَنْسَ هزيمتها فى بدر ، ودبرت أمرها بليل لكى تثأر لنفسها وقتلاها ، فحرضت بعض القبائل لتخرج معها ، وجمعت فرسانها وصناديدها ، واتخذت كل وسائل القتال وولت وجهها شطر المدينة وذلك فى منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وكان عدد المشركين نحو ثلاثة آلاف رجل .

وقد خرج كفار قريش بنسائهم لئلا يفروا عنهن ، ثم أقبل بهم أبو سفيان نحو المدينة فنزل قريبًا من جبل أحد .

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه ، أيخرج إلى أعداء الله أم يمكث فى المدينة ، وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها فإن اقتحمها المشركون قاتلهم الرجال على أفواه الأزقة ،والنساء من فوق البيوت ، ووافق بعض المسلمين على ما اقترحه الرسول ، ولكن أبى أكثر الأنصار ألا الخروج وبخاصة أولئك الذين لم يشهدوا بدرًا ، وحتى لا يتهم المسلمون بأنهم لضعفهم جبنوا عن لقاء المشركين .

ونزل الرسول ﷺ عند رغبة هؤلاء الذين ألحّوا في الخروج على كره منه ، فدخل بيته ، وارتدى ثياب الحرب ، بيد أن بعض الذين ألحّوا في الخروج ندموا على موقفهم فقالوا لنبيهم : يا رسول الله إن شئت فارجع ، فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل [1] ، وبلغ عدد الذين خرجوا مع الرسول نحو ألف مجاهد ، ولكن ابن أبي رأس المنافقين لم يواصل السير مع الرسول ، وانصرف عنه بثلث الناس مغاضبًا لمخالفة رأيه ، فقد كان يحبذ البقاء في المدينة وعدم الخروج منها .

وفي سفح جبل أحد ، وهو يبعد عن المدينة نحو ثلاثة كيلو مترات تهيأ المسلمون للقتال ، وقد أمر الرسول القائد ألا يبدأ أحد القتال حتى يؤمر به ، وجعل على الجبل رماة لحماية ظهر الجيش وحذرهم من أن يبرحوا مكانهم مهما تكن نتائج المعركة .

والتحم الفريقان ، وقاتل المسلمون ببسالة ، وأنزل الله نصره على أعدائهم ، وولى المشركون الأدبار ، فلما رأى الرماة ذلك قالوا : قد هزم أعداء الله فما لقعودنا هاهنا معنى ، فذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير أمر رسول الله ﷺ بألا يتركوا مكانهم ، ولكنهم قالوا

---

(١) انظر ، الدرر في اختصار المغازي والسير صـ ١٥٤ واللأمة ، الدرع أو جميع السلاح .

إن النصر قد تحقق ، ولم يصغوا لتذكـــير أمـــيرهم بمـــا أمـــر بـــه رسولهم ، فتخلوا عن الجبل طلبا للغنيمة .

ورأى خالد بن الوليد ، وكان مازال مشركا ، أن ظهر المســلمين قد انكشف وأن الرماة الذين كانوا درع وقاية للجيش الإســـلامى قـــد انسحبوا من مواقعهم ، فجاء على رأس ثلة من المشركين ، ورمـــــوا المسلمين من خلفهم فاضطربت صفوف المجـــاهدين ، وفقـــد القـــائد السيطرة على القوة الإسلامية ، وانهزم قوم من المســـلمين ، فـــاختل لذلك ميزان المعركة لصالح المشركين ، واستشهد من المجاهدين فـــى يوم أحد نحو سبعين رجلاً كان على رأسهم حمزة بن عبـــد المطلـــب عم رسول الله ﷺ ، قتله وحشى بن حرب ، وكان وحشـــــى حبشـــيًا يرمى بالحربة رمى الحبشة ، ثم أسلم وقتل بالحربة ــ التى قتل بـــها أسد الله ــ مسيلمة الكذاب يوم اليمامة فى حروب الردة ..

وقد خلص العدو إلى رسول الله ﷺ وأشيع أنه قد قتـــل ، وقـــد أصيبت رَبَاعِيتُه وشج رأسه ، ونَشِبت حلقتان من حلق المغفـــر فـــى وجهه ﷺ ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح ، وعض عليهما بِثَنِيَّتَيْـــه فسقطتا ، وكان الهتم يزينه ، وسقط عليه الصلاة والسلام فى حفـــرة كان أبو عامر الراهب قد حفرها مكيدة للمسلمين ، فخر عليه الصـــلاة والسلام على جنبه ، فأخذ علىٌّ بيده ، واحتضنه طلحة حتى قام ، وقد

سال الدم على وجهه عليه الصلاة والسلام فيمسحه ويقول : كيف ينجح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ وكان لبعض المجاهدين مواقف رائعة فى الدفاع عن نبيهم وحمايته وتلقى النبال دونه ، منهم أبو دجانة وأم عمارة الأنصارية (١) .

ولقد كانت الهزيمة فى أحد هى أول هزيمة تصدم المسلمين الذين نصرهم الله ببدر ، وهم ضعاف ، فكأنما وقر فى نفوسهم أن النصر فى كل موقعة هو السنة الكونية ، فلما أن صدمتهم هزيمة أُحد فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه .

وهذه الهزيمة من جهة أخرى كانت مجالاً لدسائس الكفار واليهود فى المدينة ، فقد كانت المدينة لم تخلص بعد للإسلام ، بل لا يزال المسلمون فيها نبتة غريبة إلى حد كبير ، نبتة غريبة أحاطتها بدر بسياج من الرهبة ، بما كان فيها من النصر الأبلج ، فلما كانت الهزيمة فى أُحد تغير الموقف إلى حد كبير ، وسنحت الفرصة لهؤلاء الأعداء المتربصين أن يُظهروا أحقادهم ، وأن ينفثوا سمومهم وأن يجدوا فى جو الفجائع التى دخلت كل بيت من بيوت المسلمين ـ وبخاصة بيوت الشهداء ومن أصابتهم الجراح المثخنة ـ ما يساعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة فى الأفكار والنفوس .

---

(١) انظر الدرر فى اختصار المغازى والسِّير صـ١٥٧، ١٥٨ .

لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود فـــى المدينـــة مـــا أصـــاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ليثبطوا عزائمهم ، ويخوفوهــــم عاقبة السير مع محمد ، ويصوروا لهم مخـــاوف القتـــال وعواقـــب الاشتباك مع مشركى قريش وحلفائهم .. وجو الهزيمة هـــو أصلـــح الأجواء لبلبلة القلوب ، وخلخلة الصفوف وإشاعة عدم الثقة فى القيادة والتشكيك فى جدوى الإصرار على المعركة مع الأقويـــاء وتزييـــن الانسحاب منها ، ومسالمة المنتصرين فيها ، مـــع إثـــارة المواجـــع الشخصية والآلام الفردية وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة ، ثم لـــهدم كيان العقيدة ، ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين (١) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة أُحد فى سورة آل عمـــران فى النصف الثانى منها ، وطوعًا لمنهج القرآن فى إيثـــار الإجمـــال دون التفصيل ، بينت الآيات الكريمة كل أسباب الهزيمة فـــى هـــذه الغزوة وكشفت عن مواقف الطابور الخامس فى المدينة ، كما كشـفت عن جوهر الخطأ فى تخلى الرماة عن موقعهم ، وأشـــارت إلـــى أن الحرص على المتاع الزائل يورِّث الهزيمة ، ولا يجعل الجـــهاد فـــى سبيل الله .

---

(١) انظر فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب المجلد الثالث ص٩٨،١٠٠،١٠٢ .

إن يوم أحد كان محنة للمسلمين ودرسًا للأمة فى وجوب طاعة قيادتها وأن تكون غاية الجهاد لديها إعلاء كلمة الحق ، وأن توقن أن الأيام دول وأن الحياة كما تعرف حلاوة النصر تتجرع مرارة الهزيمة ، حتى تواجه كل الشدائد بإيمان راسخ ، وعزيمة صادقة ، تأخذ بالأسباب ثم تفوض الأمر بعد ذلك للحق سبحانه ، فهذا مناط النصر والخير فى الدنيا والآخرة .

يوم الأحزاب

كان يوم الأحزاب يومًا عصيبًا فى تاريخ الإسلام فى عصر البعثة ففيه أطبقت كلمة الشرك فى الجزيرة العربية على اجتياح المدينة لتدميرها والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها ، فقد أدركت أنها لن تستطيع فرادى التصدى لمحمد ومنعه مما يدعو إليه ، وينادى به ، فتحالفت كل القبائل وزحفت نحو المدينة فى جيش بلغ تعداده نحو عشرة آلاف مقاتل ، وكان ذلك فى شوال من السنة الخامسة للهجرة .

وكان اليهود حتى الذين كان بينهم وبين الرسول عهد وميثاق ـ كبنى قريظة ـ من وراء تأليب كل القبائل ، وحضهم على الفتك بمحمد ومن اتبعه فى داخل المدينة نفسها حتى لا تقوم للدعوة الجديدة قائمة بعد ذلك ، وهذا دأب اليهود دائمًا فى كل العصور ، دأبهم الغدر والخيانة وانتهاز الفرص لتحقيق مآربهم ، لا يعرفون وفاء لعهد ، أو احترامًا لوعد ، أو التزامًا بتشريع وقانون ، ولا يردعهم إلا القوة بمفهومها الشامل .

فلما سمع رسول الله ﷺ باجتماع الأحزاب وخروجهم إليه ، شاور أصحابه ، وانتهوا إلى أنهم لا قِبَلَ لهم بمواجهة هذه الجموع

الحانقة الغادرة ، فقد كانت قوة الجيش الإسلامى نحو ثلاثة آلاف مجاهد ، ولهذا تحصنوا فى المدينة للذود عنها ، واستجاب الرسول ﷺ لما أشار به سلمان الفارسى من حفر الخندق ليكون عائقًا ماديًا يحول أو يعرقل الاجتياح ، وتم حفر الخندق فى السهل الواقع شمال غرب المدينة ، فهو الجانب المكشوف[1] الذى يخاف منه اقتحام العدو ، فلم يكن الخندق محيطًا بالمدينة كما يتوهم بعض الكتاب .

واشترك الجميع فى حفر الخندق ، ولكن المنافقين لم يشتركوا ، وجعلوا يتسللون لواذًا ، وكان الرسول ﷺ قدوة المجاهدين فى الحفر وتجلت فى هذه المهمة الشاقة بشائر النصر فى الجزيرة وخارجها ، وأن الإسلام سيبلغ فارس والشام .

وقام العمل فى حفر الخندق على أساس تقطيع المسافة التى حفرت بين الصحابة أربعين ذراعًا لكل عشرة رجال ، وكان من فرغ من المسلمين من حصته عاد إلى غيره فأعانه حتى كمل الخندق [٢].

وتجلت فى مهمة حفر الخندق معجزة للرسول ﷺ وذلك أن عشرة من الصحابة كانوا يحفرون حصتهم لقوا صخرة قاسية أثرت فى معاولهم ولم تؤثر فيها المعاول ، وكرهوا أن يعدلوا عنها فيحيدوا

---

(١) أما الجوانب الأخرى فكانت ممتنعة على الغزاة بجبالها ، ونخيلها .

(٢) انظر الدرر فى اختصار المغازى والسير صـ١٠٨ .

عن خطة الرسول لهم ، فقالوا لسلمان الفارسى ــ وكان أحد هؤلاء العشرة ــ اصعد فانظر ماذا يأمر رسول الله ؟

فرقى سلمان فقال : يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا ، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مَرْوَة [1] فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما نحيك فيها قليلاً ولا كثيرًا ، فمرنا فيها بأمرك ، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك .

فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان فى الخندق ، ورقى التسعة على شِقَّة الخندق [2] ، فأخذ الرسول المعول مع سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ، فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فصدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ، فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ، ثم ضربها رسول الله الثالثة فكسرها وبرقت برقة أضاءت ما بين لابتيها ، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون .

قال سلمان للرسول : لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال : هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم

---

(١) مروة : حجارة بيضاء تقدح منها النار .

(٢) شقة الخندق بمعنى جانبه .

يا رسول الله ــ بأبينا أنت وأمنا ــ قد رأيناك تضرب فيخرج بــرق كالموج فرأيناك تكبر فنكبر ، ولا نرى شيئًا غير ذلك .

قال رسول الله ﷺ : أما الأولى فقد أضاءت لى منـــها قصــور الحيرة ومدائن كسرى ، والثانية أضاءت لى منها قصر الحمــر مــن أرض الروم ، والثالثة أضاءت لي منها قصور صنعـــاء ، فأبشــروا يبلغكم النصر ، وأبشروا يبلغكم النصر وأبشروا يبلغكم النصر " .

إن هذا لشئ عجاب ، جماعة قليلة لم تســـتطع الدفــع بأيديــها وأسلحتها فاعتصمت بالخندق تتقى به عَدُوًا أكبر عددًا ، وأعظم عــدة ويتحدث قائدها بفتح المشـــرق والمغــرب ، لقــد قــال المنــافقون والساخرون : ألا تعجبون ، يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ، يخـبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنـــها تفتــح لكم ، وأنتم تحفرون الخندق ، ولا تستطيعون أن تبرزوا .

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنـــا الله ورسوله إلا غرورًا ﴾ [1] .

وعاش الساخرون حتى رأوا جزيرة العـــرب تديــن لصـــاحب المعول ورأوا فارس والروم تخر لضرباته ، والمشـــرق والمغــرب تستضئ بتلك البرقات [2] .

---

(١) الأحزاب : ١٢ .

(٢) انظر ضربات معول للدكتور عبد الوهاب عزام بمجلة الرسالة ، العدد : ٦٥٣ صـــ٥ .

إنها حقا معجزة من معجزات محمد ﷺ ، لقد أخبر بما سيقع من النصر والفتح فى لحظات تكابد فيها الجماعة المؤمنة مشاعر الخوف والقلق .

واشتد الحصار على المدينة وطال نحو شهر ، وقل الطعام حتى إن المسلمين ربطوا الحجارة على بطونهم من شدة الجوع ، وتمكنت جماعة من المشركين من دخول المدينة من أضيق مكان فى الخندق ، وتوجهوا نحو بيت الرسول ، ولكن تصدى لهم بعض المجاهدين ، وأجبروهم على التراجع دون تحقيق ما أرادوا .

لقد كان الموقف ينذر بخطر داهم فالعدو قد جاء من كل جانب وعقد العزم على الفتك بالقلة المؤمنة . لقد كان ابتلاء قاسيًا صوره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **إِذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلِي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا** ﴾ [1] .

ومع هذا الإحساس بالخطر الداهم وسيطرة التوجس من الاقتحام ثبت أهل اليقين الصادق ، والعقيدة الراسخة ، فإيمانهم أقوى من كل خطر ، وثقتهم بنصر الله لا يعلق بها أدنى شك ﴿ **ولما** رأى

---

(١) الأحزاب : ١٠، ١١ .

المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا ﴾ [1]

أما أهل النفاق والذين فى قلوبهم مرض . فقد أظهروا ما عقدوا عليه ضمائرهم وانطلقت ألسنتهم بالسوء تسخر من وعد الله ورسوله بالنصر ، ولكن الله لا يخلف وعده مع المؤمنين ، فقد أخذ الخلاف يدب بين المتحالفين ، واهتزت الثقة بينهم ثم جاءت جنود الله التى لا يعلمها إلا هو ، جاءت العواصف الشاتية في ليلة شديدة البرد فقلبت القدور ومزقت الخيام ، وبثت الرعب فى الإنسان والحيوان ، وهرولت القبائل مذعورة فى رحلة العودة إلى مضاربها **﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا ﴾** [2] .

إن نصر الله لا يتنزل على المتواكلين والمقصرين ، وإنما يتنزل على الذين استفرغوا جهدهم فى مقاومة الباطل ، فهؤلاء يدافع الله عنهم وينصرهم على أعدائهم مهما تكن قوة هؤلاء الأعداء ، وفى يوم الأحزاب خير برهان على دفاع الله عن عباده المؤمنين .

---

(١) الأحزاب : ٢٢ .

(٢) الأحزاب : ٢٥ .

يوم بنى قريظة

بعد الهجرة إلى المدينة عقد رسول الله ﷺ مع قبائل اليهود معاهدة سميت بالصحيفة أو الوثيقة أو الكتاب ، وذلك لأن اليهود أهل كتاب ، وهم أقرب إلى الدعوة الجديدة من الوثنيين والمشركين ؛ فهم يؤمنون بوحدانية الله ، ومن ثم لن يكونوا حربًا على هذه الدعوة إن أبوا الإيمان بها أو الدفاع عنها .

وقررت هذه المعاهدة الحرية الدينية ، وكان هذا تكريمًا للإنسان الذى عبث به الظلم والاستبداد ، وحرمه القهر والتسلط من اعتناق ما يؤمن به ، كما قررت أن بين المسلمين واليهود تحالفًا ضد الشرك . فعلى الجميع الوقوف ضد من حارب أهل هذه الصحيفة أو دهم يثرب ، ولكن بنى قريظة حين رأوا قريشًا قد جمعت الجموع وحزبت الأحزاب لاقتحام المدينة نقضت العهد ، وساعدت القبائل الوثنية فى حصار المدينة ..

ولما تأكد الرسول ﷺ من هذا النقض وأن بنى قريظة أخذوا فى الاستعداد للهجوم على المسلمين مع المشركين ، أمر المسلمين بالمسير إلى بنى قريظة ، لمعاقبتهم على نكث العهد ، وكان هذا الأمر وحيًا إلهيًا جاء به جبريل إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أذن مؤذن

فى الناس أن من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فـــى بنـــى قريظة ، وكان ذلك بعد انتهاء يوم الأحزاب.مباشرة .

وحاصر المسلمون بنى قريظة خمسًا وعشرين ليلة ، وقد قاســـى اليهود من هذا الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعـــب ، وعـــرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال ليختاروا أيها شاءوا . إما أن يسلموا ويتبعوا محمدًا على ما جاء به فيسلموا ، قـــال : وتحـــرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم فو الله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه فـــى كتابكم ، وإما يقتلوا أبناءهم ونساءهم ، ثم يتقدموا فيقاتلوا حتى يموتوا عن آخرهم ، وإما أن يبيتوا للمسلمين ليلة السبت فى حين طمأنينتـــهم فيقتلوهم قتلاً ، فقالوا له : أما الإسلام فلا نســـلم ولا نخـــالف حكـــم التوراة ، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فمـــا جزاؤهـــم المســـاكين منـــا أن نقتلهم ، ونحن لا نعتدى فى السبت [1] واضطر اليهود تحـــت وطـــأة الحصار أن يبعثوا إلى الرسول ﷺ يلتمسون منه إنـــهاء الحـــصار ، وانتهى الأمر بنزولهم على حكم رسول الله ﷺ فيهم ، وقـــد انتـــدب الرسول سعد بن معاذ ليقضى فى هؤلاء النـــاكثين للعـــهد ، وجـــاء حكمه بقتل من بلغ الحُلمُ من الرجال وسبى الذرارى والنساء وتقســـيم

---

(١) انظر الدرر فى اختصار المغازى والسير ص١٨٩ ومعنى يبيتون المسلمين ، أى يـــأتوهم ليلاً .

الأموال ، وعقب الرسول على الحكم بقوله : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات ..

وكانت هذه العقوبة الصارمة ضرورية ، لأنها قضت على أوكار المؤامرة والطعن من الخلف ، كما أنها كانت درسًا للعابثين بالعهود ، وبذلك ضعف صوت النفاق ، وأمن المسلمون من الغدر والكيد . على أن هذا الحكم جاء موافقًا لقانون الحرب فى شريعة بنى إسرائيل ، كما جاء فى الإصحاح العشرين من صفر التثنية .

وفى يوم بنى قريظة إشارة إلى أن النبى ﷺ كان يحض الصحابة على الاجتهاد ، ويشجعهم عليه ، ليتعلموا طرائق البحث والنظر والاستدلال ، وذلك أن الرسول حين أمرهم ألا يصلوا العصر إلا فى بنى قريظة ، اجتهد بعضهم وصلاها فى الطريق ، وقال : لم يرد منا الرسول التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ، فنظر إلى المعنى أو العلة . واجتهد آخرون وأخروا الصلاة إلى بنى قريظة فصلوها ليلاً ، فهؤلاء نظروا إلى اللفظ وأخذوا بظاهره دون اعتبار لعلته ولما علم الرسول ذلك أقر كل فريق على ما ذهب إليه ، وفى هذا دليل على أن كل مجتهد مأجور ، لأن الرسول سوى بين الطائفتين ولو كانت إحداهما أصابت والأخرى أخطأت لفضل أهل الصواب وإن لم يعنف أهل الخطأ .

إن فى يوم بنى قريظة دليلاً صريحًا على أن اليهود لا يحترمون العهود والمواثيق ، وهم لهذا لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولاذمة ومــــن ظن غير ذلك فهو واهم ، وصـــدق الله العظيـم إذ يقـول عنـهم : **﴿ أوكلمـا عـاهدوا عـهدًا نبـذه فريـق منـهم بـل أكـــثرهم لا يؤمنون ﴾** [١] .

---

(١) البقرة : ١٠٠ .

يوم الحديبية

يعدُّ يوم الحديبية من أيام محمد المباركة ، فقد كان هـــذا اليــوم فتحا مبينا ، ونصرًا مباركًا للإسلام والمسلمين ، وإن لم يفقـــه هــذا بعض الصحابة وظنوا أن المسلمين خضعوا لما أملتــه قريــش مــن شروط هى فى صالحها وليست فى صالح الإسلام والمسلمين .

إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان قد رأى فى المنام أنه دخــل مكة دون تحديد لشهر أو عام . ورؤيا الأنبياء حق وليست أضغـــاث أحلام ، وقد أخبر الرسول أصحابه بما رأى ففرحوا فرحًـــا بالغًـــا ، فقلوبهم تهفوا إلى مكة ، وبخاصة أولئـــك الذيــن أُخرُجــوا منـــها ، وهاجروا إلى المدينة .

وفى شهر ذى القعدة سنة ست من الهجرة خـــرج الرســول ﷺ معتمرًا لا يريد حربا ، ومعه ألف وخمسمائة من الصحابة ، وســـاق معه الهدى ، ليعلم الناس أنه خرج زائرًا للبيت ومعظما له .

وفزعت قريش بعد أن عرفت ما يرغب فيه محمدًا وأصحابـــه ، وقد بعث الرسول عثمان بن عفان ليخبر أهل مكة بأن المسلمين لـــم يخرجوا لقتال ، وإنما خرجوا عُمّارًا وزوارًا ، وأبطـــأ عثمـــان فـــى

العودة من مهمته ، وشاع أنه قد قتل ، فدعا الرسول ﷺ إلى البيعة والاستعداد للجهاد فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فى الحديبية .

وبدأت بعد ذلك مفاوضات ووساطات انتهت بمعاهدة صلح بين المسلمين وقريش ، وتجلت فى نصوص هذه المعاهدة حكمة الرسول ﷺ وبعد نظره ، فقد أبى سهيل بن عمرو سفير كفار قريش أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : سهيل لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم ، قال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال الرسول لعلى ــ وكان كاتب صحيفته ، امح يا على ، وأبى على أن يمحو بيده " رسول الله" فقال له الرسول ﷺ: اعرض علىّ ، فأشار إليه ، فمحاه صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن يكتب : محمد بن عبد الله ، ثم كتبت شروط الصلح وأهمها أن ينصرف المسلمون هذا العام ، فإذا كان العام القادم أتى الرسول وأصحابه معتمرين ودخلوا مكة بلا سلاح حاشا السيوف فى قربها ، فيقيم بها ثلاثا ويخرج ، وأن يكون بين الطرفين صلح عشرة أعوام يأمن فيها الناس بعضهم بعضا ، وأن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رُدَّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدا لم

يردوه إلى المسلمين ، وأن من أراد أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل ..

وضاق كثير من الصحابة بهذا الصلح ، حتى كادوا يهلكون ، وظنوه صلحًا مهينًا وليس فتحًا مبينا ، ومن ذلك ما جرى بين الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقد قال عمر : أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ ورد الصديق : بلى ، فقال الفاروق : أولسنا مسلمين ؟ فقال أبو بكر : بلى ، فقال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ، فرد أبو بكر : يا عمر الزم غرزك (١) " فإنى أشهد أنه رسول الله ، فقال الفاروق : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ولما طلب الرسول من الصحابة أن يتحللوا من إحرامهم ويذبحوا هديهم فقد أحصروا وحيل بينهم وبين أن يعتمروا لم يجبه أحد ، فدخل خيمته غاضبًا ، فقالت له زوجته أم سلمة ، اخرج يا رسول الله وانحر هديك ، فإنهم سيفعلون مثل ما تفعل ، وأنهى رأى أم سلمة المشكلة ، وتدافع الصحابة إلى نحر الهدى .

---

(١) انظر الدرر ص ٢٠٤ ، وحياة محمد ص ٣٠١ ، وقد أبطل القرآن بعد ذلك شرط رد النساء .

(٢) الغرز : ركاب الرحل ، والمراد الزم أمره ونهيه .

وأكدت الأحداث بعد ذلك أن هذا الصلح كان خيرًا ونصرًا ، فقد أصبح المسلمون بعده قوة اعترفت قريش بها فأبرمت معها المعاهدات ، ثم منحت الهدنة المسلمين فرصة الدعوة إلى الإسلام ، كما يسرت لهم الاختلاط بالمشركين ، فعرف هؤلاء من أخلاق المسلمين ما لم يعرفوا من قبل ، فدخلت أعداد كثيرة منهم في الإسلام ، ولهذا لم يمض على صلح الحديبية عام كامل حتى دخل في هذا الدين من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة .

أما الشرط الذى نص على أن يرد المسلمون من جاءهم من الكفار مسلمًا ، فإن قريشًا طلبت عدم الالتزام به لأن هؤلاء الذين أسلموا وأمرهم الرسول بأن يرجعوا من حيث أتوا كونوا قوة هددت مصالح قريش وتجارتها على الطرقات .

إن محمدًا ﷺ بثقته فى نصر الله له ، وبعد نظره وحكمته فى مواجهة المشركين وتنازله عن بعض الأمور الشكلية فى كتابة شروط الصلح حقق للإسلام والمسلمين نصرًا مبينًا سجله القرآن الكريم فى سورة الفتح ، وهذه الحكمة النبوية أحوج ما تكون إليها الأمة اليوم فى حاضرها حتى تجتاز تلك المرحلة الحرجة فى حياتها ، وينصرها الله نصرًا عزيزًا على أعدائها .

يوم الفتح

كان يوم فتح مكة فى شهر رمضان من السنة الثامنة للـــهجرة ، وكان قمة الانتصار لدعوة الحق ، ففــى هــذا اليــوم ذالــت دولــة الشرك ، وطهر البيت الحرام من الأوثان والأصنام ، ودخل النـــاس فى دين الله أفواجا .

على أن يوم الفتح لا يمثل عدوانا على أهل مكة ، فهم قد نقضوا ما شرطوا لرسول الله ﷺ فى صلح الحديبية إذ كان من شروط هــذا الصلح ــ كما سبقت الإشارة إلى هذا فى يوم الحديبيــة ــ أن مــن أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه ، ومن أحـب أن يدخل فى عقد قريش فليدخل ، فدخلت خزاعة ، فى عقد رســول الله ﷺ وعهده ، ودخلت بنو بكر فى عقد قريــش ، ودفعــت ســورة الحقد الجاهلى قريشًا وحلفاءها من بنى بكر إلى مهاجمة خزاعة وهى مع المسلمين فى حلف واحد ، وقاتلوهم ، فأصابوا منـــهم رجــالا ، وانحازت خزاعة إلى الحرم ولم تكن متأهبة للحرب فتبعهم بنو بكــر يقتلونهم ، وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغى .

وفزعت خزاعة لما حل بها إلى رسول الله ﷺ تخبره بما أصابها ، وبما كان من تحالف قريش مع بنى بكر عليها ، بالإضافة إلى أن ما قامت به قريش نقض صريح للعهد وشروط الصلح ، ولا سبيل إلى حماية خزاعة والرد على نقض العهد إلا بإعداد الجيوش لفتح مكة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولم يمض وقت طويل حتى كان المسلمون قد تجهزوا للسير نحو مكة ، وحاولت قريش أن تثنى الرسول عن السير إلى مكة ، فنهض أبو سفيان حتى أتى المدينة وكلم الرسول ﷺ فى المسجد ، فلم يجبه بكلمة ، وذهب إلى أبى بكر وعمر وعلى فلم يلق منهم ما جاء من أجله ، وهو الزيادة فى مدة الصلح وشد العقد [1]، وانصرف بغير حاجة .

ولم يترك رسول الله ﷺ لأهل مكة فرصة حتى يستعدوا للقائه، حرصًا منه عليه السلام على أن يباغت القوم فى غرة منهم فلا يجدوا له دفعًا ، فيسلموا من غير إراقة الدماء ، وقد دعا الله تعالى فى أن يأخذ عن قريش الأخبار [2] ويستر عنهم خروجه ، ولذلك كانت

---

(١) شد العقد بمعنى تقويته ، والمراد بالعقد عقد الصلح

(٢) أى يعميها عليهم حتى يفاجأهم جيش المسلمين ، ويروى أنه عليه السلام كان يدعو : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش (وانظر الدرر ص ٢٢٦ هامش) .

أوامر الرسول للقواد ألا يحاربوا أو يسفكوا دما إلا إذا أكرهوا على ذلك ليدخل المسلمون البلد الحرام آمنين مطمئنين .

كان جيش المسلمين نحو عشرة آلاف مجاهد ، وقد دخل مكة دون مقاومة . اللهم إلا ما كان من الفرقة التى قادها خالد بن الوليد ، فقد اعترض لها . بعض المشركين ، ولكنهم لم يصمدوا أمام بأس خالد ورجاله وولّوا منهزمين .

وبعد أن أخذ الرسول حظًا قليلا من الراحة فى قبته التى ضربت له على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة امتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعا ، فلما قضى طوافه طلب عثمان بن طلحة ، وتكاثر الناس فى المسجد ، ووقف أمامه فى ذلة وضعف من كانوا بالأمس يأتمرون به ليقتلوه ، ومن أساءوا إليه وإلى أصحابه إساءة بالغة تجاوزت كل حد ، وكان عليه الصلاة والسلام يستطيع أن يعاقب هؤلاء القساة الظالمين ولا جناح عليه فى هذا فجزاء سيئة سيئة مثلها ، ولكن محمدًا ﷺ رحمة مهداة تعفو عمن ظلم ، وتدفع بالتى هى أحسن ، وهذه بعض أسرار العظمة الإنسانية فى حياته عليه السلام .

لقد خطب الرسول فى هذه الجموع التى احتشدت أمامه وهو يقف على باب الكعبة قائلا : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء فالناس جميعا لآدم وآدم من تراب ثم

تلا قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنــا خلقنــاكم مــن ذكــر وأنثــى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقــاكم إن الله عليم خبير**﴾ [1]. ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ، قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم قال : اذهبوا فأنتم الطلقــاء [2]. وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريـــش وأهـــل مكـــة جميعــاً ، إلا أربعة أمر الرسول بقتلهم لارتكابهم جرائم توجب القتل .

إن هذا العفو العام الذى لا يصدر إلا عن قلب كبــير لا يعــرف غير الحب والتراحم والرأفة ، ويزيد من جلاله وروعته صدوره فــى لحظة القوة والغلبة ، فالقوى الذى ينتصر مـــن الضعيــف أضعــف الضعفاء ، والقوى الذى يصفح عن عدوه وهو قـــادر عليـــه أرحــم الرحماء وأشرف الأقوياء .

ما أجمل العفو عند المقدرة ، وما أعظم هذه النفس التى ســـمت كل السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام وأنكرت كـــل عاطفـــة دنيا ، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان ، هؤلاء قريش يعـــرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن عذبوه وأصحابه مـــن قبـــل ذلك ، ومن قاتلوه فى بدر وفى أحد ، ومن حصـــروه فـــى غـــزوة

---

(١) الحجرات : ١٣.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، جـــ ٢ ، ص ٤١٢ .

الخندق ومن ألَّبوا عليه العرب جميعاً ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إربًا إربًا ، لما ونّوا فى ذلك لحظة ، هؤلاء قريش فى قبضة محمد وتحت قدميه ، أمره نافذ فى رقابهم وحياتهم جميعًا معلقة بين شفتيه وفى سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها فى رجع البصر ، لكن محمدًا ﷺ ليس بالرجل الذى يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس ، وليس بالجبار ولا بالمتكبر ، لقد أمكنه الله من عدوه . فَقَدَرَ فعفا ، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعًا مثلاً فى البر والوفاء بالعهد ، وفى سمو النفس سُموًّا لا يبلغه أحد .

لقد كان محمد ﷺ رحيمًا عظيما فى ضعفه وقوته ما عرف الانتقام سبيلا إلى فؤاده ، وما جازى مسيئًا بإساءته ، وما حرص على شىء حرصه على أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور وصدق الله العظيم إذ يقول : **﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** [1].

فما أجدر الدعاة والقادة والحكام والناس كافة أن يسترشدوا بسيرة هذا النبى الإنسان الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ؛ فهى كلها دروس رائعة تنير معالم الطريق نحو حياة إنسانية كريمة تليق

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

بالإنسان الذى كرمه ربه ، وجعله خليفته فـــى أرضـــه وصـــدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا** ﴾ [1].

(١) الأحزاب : ٢١ .

يوم حنين

حنين واد من أودية تهامة ، قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات .

وكان يوم حنين يوم السبت السادس من شوال سنة ثمان من الهجرة ، أى بعد فتح مكة بنحو أسبوعين .

وكانت قبيلة هوازن تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقى ، فلما علمت بما تم للمسلمين من فتح مكة وتحطيم أصنامها خشيت أن تدور عليها الدائرة ، وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها ، ففكرت فيما تصنع لاتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع ، ولصد محمد ﷺ والكف من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة ، وعلى ضمها كلها فى وحدة يظلها الإسلام ، لذلك انضمت ثقيف إلى هوازن ، واتُخذ القرار بغزو المسلمين قبل أن يغزوهم ، وقامت خطة الحرب على أساس أن قبائل حنين تحتل قمم الجبال وعند مضيق الوادى ، فإذا نزل المسلمون الوادى شدت عليهم هذه القبائل شدة رجل واحد تضعضع صفوفهم ، فيختلط حابلهم بنابلهم ، ويضرب بعضهم بعضا وتدور عليهم

الهزيمة ، ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة ، ويبقى لقبائل حنين فى بلاد العرب جميعًا فخار النصر على هذه القوة التى تريد أن تُظِلى بسلطانها بلاد العرب جميعًا .

ولما بلغ خبر هوازن إلى رسول الله ﷺ سار إلى حنين فى اثنى عشر ألفا من المقاتلين منهم عشرة آلاف هم الذين فتحوا مكة ، وألفان ممن أسلم من قريش .

وكان هذا العدد من المجاهدين أكبر قوة إسلامية محاربة لم تكن من قبل حتى قال بعض الصحابة لن نُغلَب اليوم من قِلة .

لقد أنست كثرة المسلمين بعضهم أن النصر بيد الله ، وأن العبرة ليست بالعدد والعدة ، ولكنها أولاً بقوة الإيمان وسلامة اليقين وحب الاستشهاد ومن ثم كان ذلك الدرس الذى تلقاه المسلمون فى حنين ، لقد غرتهم الكثرة وانطلقوا إلى المعركة بإحساس الواثق فى الانتصار لكثرة عدده ، لا لأنه يحمل بين جوانحه العقيدة الصادقة التى تمنح صاحبها أسباب النصر ، وتحول بينه وبين الغرور ، وهو آفة الآفات فى ميدان الجهاد .

لقد دخل الجيش الإسلامى بقيادة الرسول ﷺ وادى حنين فى غلس الصبح ، وما كاد يقطع مسافة قليلة فى هذا الوادى حتى فوجىء بسهام المشركين تمطر عليهم من حيث لا يحتسبون ، فالمشركون كانوا فى كمائنهم فى قمم الجبال وبعض الغيران ، ولهذا

لم يكن بينهم وبين المسلمين مواجهة قتالية ، ولهذا لم يستطع المسلمون أن يردوا على السهام ، واستولى عليهم الفزع فاضطرب الجيش وفرَّ كثير من رجاله ، ونظر الرسول ﷺ فرأى المسلمين قد تركوا ميدان المعركة ، ولم يبق معه إلا عدد قليل فنادى :

أنا النبى لا كذب *** أنا ابن عبد المطلب

واستجاب لهذا النداء كثير من الفارين ، وصدقوا مع الرسول فى جهادهم فكان نصر الله الذى لا يُغلب ، وأنزل الله فى شأن هذه الغزوة :﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين** ﴾ (١).

وتصور هاتان الآيتان فى دقة بالغة المعركة وأسباب الهزيمة فأشارت إلى مشاعر الإعجاب بالكثرة ، وما أدى إليه من زلزلة مشاعر الثبات والرد ، ووقوع الهزيمة النفسية ، وتصوير الجزع والخوف فليس فى الأرض على سعتها مجال للأمن ، فقد ضاقت عليهم ، وكانت النتيجة الحتمية هى تولية الأدبار أو الفرار .

---

(١) التوبة : ٢٥ ــ ٢٦ .

ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وكأنما السكينة رداء ينزل فيثبت القلوب الطـائرة ، ويـهدىء الانفعـالات الثـائرة وجاءت جنود الله التى لا نعلم ماهيتها ، ولم يراها المسلمون وعَذّبـت الذين كفروا بالقتل والسلب والهزيمة .

إن يوم حنين يعرض لنتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد علـى قوة غير قوته ، وليكشف للأمة عن حقيقة القوى التى تعتمد عليها كل عقيدة .

إن الكثرة العددية ليست بشىء ، وإنمـا هـى القلـة العارفـة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة ، وإن الكثرة لتكون أحيانًا سببا فـى الهزيمة لأن بعض الداخلين فيها ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التـى ينساقون فى تيارها تتزلزل أقدامهم وترتجـف فـى سـاعة الشـدة فيشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف ، فوق ما تخدع الكـثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله ، انشـغالا بـهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر فى الحياة [1].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن مجلد ٣ ص ١٦٦ .

بين بدر وحنين :

إذا ذكرت معركة حنين فإن الذهن غالبًا ما يذكر معركة بـــدر ، وقد ورد الحديث عن هذه المعركة فيما سبق ، وبين أن المجـــاهدين فيها ــ على قلتهم فى العدد والعدة ــ صدقوا ما عاهدوا الله عليـــه ، فنصرهم نصرًا عزيزًا .

وأما المؤمنون فى يوم حنين فقد كانوا فى عدد كثير أعجبـــهم ، وظن بعضهم أن النصر بهذا العدد أمر لا مراء فيه ، وهنـــا يكـــون الدرس الذى يعيد للمؤمن إيمانه الصحيح الذى لا يشوبه شرك أياً كان لونه . فهذا العدد الكثير جلب العجـب والفـزع والفـرار والتمـــاس الحماية والوقاية وكأن الأرض على سعتها أضحـــت إمامـــه ضيقـة لا يجد فيها مأمنا ، وكان هذا الدرس خير عظة للمؤمنين بعد ذلـــك ، وكان تسجيله فى الذكر الحكيم ليكون للمؤمنين فى كل زمان ومكـــان مرشدًا مذكرا حتى لا يضلوا ، أو يرديهم العجب والغرور .

وتجدر الإشارة إلى أن الإيمـــان الصـــادق يفـرض الاسـتعداد الكامل ، والقول بأن الله لا يتخلى عن عباده المؤمنيـــن وإن فرطـــوا قول غير صحيح ، لأن من أخص صفات هؤلاء أنـــهم لا يتواكلـــون ولا يهملون ، ويأخذون بقول الله تبارك وتعـــالى :﴿ وأعــدّوا لـــهم

ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [1].

ثم هم بعد الأخذ بكل أسباب القوة المادية فى صورة دقيقة تلائم الزمان والمكان لا تبطرهم المظاهر الشكلية ، ولا تطغيهم القوة المادية ، وإنما يخوضون المعارك بقلوب يعمرها الإيمان والتوكل الصحيح على الله ، وهنا فقط يحقق الله لهم النصر ، ويجعل الدائرة على أعدائهم .

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

يوم العُسرة

فى السنة التاسعة بعد الهجرة بلغ رسول الله ﷺ أن الـــروم قـــد جمعت له جموعاً كثيرة على أطرف الجزيرة بالشام ، وأن هرقل قـــد رزق أصحابه رزق سنة ، وانضمت إليه لخم وجذام وغسان وعاملـــة من قبائل العرب ، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقـــاء وعســكروا بها [1].

ويبدو أن هؤلاء لما علموا بفتح مكة ، وما تـــلاه مـــن بعـــض الغزوات والسرايا أيقنوا أن جيوش محمد ستدهمهم فـــى ديـــارهم إن عاجلا أو أجلا ، فأرادوا أن يهاجموه قبل أن يهاجمهم ، ويقضوا عليه قبل أن يقضى عليهم ؛ لذلك أعدوا عدتـــهم ، وجمعـــوا جموعـــهم ، وزحفوا ليلقوا محمدًا وأصحابه الذين أصبحت لـــهم فـــى الجزيـــرة منزلة السيادة والقيادة .

---

(١) امتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص ٤٤٦ . ومعجم البلـــدان المجلـــد الأول ص ٤٨٩ والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى ، وهى الآن المنطقـــة الشـــمالية الغربية من الأردن .

واستنفر الرسول الناس إلى الجهاد ، وحضهم عليه ، وكان عليه السلام قلما يغزو غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة فى الحرب ، بيد أنه فى هذه الغزوة ــ غزوة تبوك ــ صرح بها للناس لبعد الشُقة بينه وبين عدوه . ولقوة هذا العدو وكثرته . ولشدة الحر وقلة الأموال فى الأيدى ، فقد كان هذا العام عام جدب [1] ومن ثم تسمى هذه الغزوة غزوة العسرة أيضًا ، وهى آخر غزوة غزاها محمد صلى الله عليه وسلم .

ولهذا كله انطلق المنافقون ومن فى قلوبهم مرض للتعبير عن أحقادهم وخبث ضمائرهم ، فالفرصة أمامهم ــ كما يظنون ــ مواتية لضرب الإسلام ضربة قاصمة ، وتعريض محمد ومن يخرج معه لحرب الروم لخطر لا قبل لهم به فتدور الدائرة عليهم ، وهذا غاية ما يطمع فيه النفاق .

لقد أخذ المنافقون يُخَذِّلون الناس ، ويقولون لهم لا تنفروا فى الحر ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فعدوكم هذه المرة من نوع آخر فى الكر والفر والعدد والعدة ، وذهب بعضهم إلى الرسول يستأذنه فى التخلف لأعذار واهية ، فقبلها منهم ، وهؤلاء كانوا يبغون من هذا أن يكونوا لسواهم قدوة فى القعود ، وقد نجح المنافقون بعض النجاح فى كيدهم وحقدهم فتخلف عدد من المؤمنين . وكادت تزيغ

---

(١) الدرر فى اختصار المغازى والسير : ٢٥٢ .

قلوب فريق من الأنصار والمهاجرين ، لـــولا فضــل الله ورحمتــه بهم ، ومع هذا فصل الرسول ﷺ من المدينة بجيش عظيم بلغ تعــداده ثلاثين ألفا من المجاهدين ، وعشرة آلاف فرس ، واثنا عشـــر ألـــف بعير ليلقى به الروم فى تبوك [(١)] .

وأقام الرسول ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة لم يلق فيـــها حربـــا ، ولعل الروم الذين كانوا قد أخذوا للحرب مــــع المســلمين أهُبتـــها ، وأنفقوا فيها من الأموال ما أنفقوا توجسوا خيفة من الهزيمــــة حيــن سعى المسلمون إليهم ، وهم يعرفون عنهم أنـــهم يحرصـــون علـــى النصر أو الشهادة ، ويضاف إلـــى هــذا أن رســول الله ﷺ شـــاور الصحابة فى التقدم للقاء الروم ــ فقال عمر بن الخطاب رضـــى الله عنه : إن كنت أمرت بالمسير فسر ، فقال : لو أمرت ما استشـــرتكم فيه ، قالوا يا رسول الله إن للروم جموعًا كثيرة ، وليس بها أحد مـــن أهل الإسلام ، وقد دنّوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دنوك ، فلـــو رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله لك فى ذلك أمرًا [(٢)].

وهذه الغزوة وإن لم يحارب فيها المسلمون الروم أكدت شـــجاعة المجاهدين ، تلك الشجاعة التى كان من ورائها الروح الإسلامية التى

---

(١) تبوك ــ مكان بين المدينة ودمشق ، ويبعد عن المدينة بنحو ٦٠٠ كيلو متر .

(٢) امتاع الأسماع جــ ١ ، ص ٤٤٧ .

تعشق الموت فى سبيل الله ، والتى ألقــت فــى قلــوب المشــركين والكافرين ــ مهما تكن جموعهم ــ الخوف والهلع ، وأثبتت أن القـوة الإسلامية أصبح لها مكانة عالمية ، وتهابها القوى التى كانت معروفة بسلطانها فى العالم كالفرس والروم .

وهذه الغزوة وإن عرفت مواقف شائنة من المنافقين والمُخَذِّليــن والذين فى قلوبهم مرض ولا يريدون لنور الله أن يبدد غياهب الوثنية والجاهلية ، فإنها عرفت مواقف إسلامية رائعة ويزيد مــن روعتــها أنها صدرت فى وقت العسرة والشدة ، فقد تبارى المسلمون فى بــذل الأموال لتجهيز المجاهدين ، فقد قدم أبو بكر كل ماله ، وقدم الفاروق نصف ماله ، وجهز عثمان بن عفان ثلث الجيش فكــان مــن أكــثر الصحابة نفقة ، ويروى أنه جاء بألف دينــار ففرغــها فــى حجــر النبى ﷺ فجعل يقبلها ويقول ﷺ : [**ما ضر عثمان ما فعل بعد هــذا اليوم ، قالها مرارًا**] .

أما النساء فقد أتت بكل ما قدرن عليه فكن يلقين ــ فــى ثــوب مبسوط بين يدى النبى ﷺ ــ المسَكَ والمعاضد والخلاخل والأقرطــة والخواتم والخدمات [(١)].

---

(١) المرجع السابق ، والمسكة وجمعها المسك السوار تجعله المــرأة فى يديــها ، والمعضــدة والمعضد : الدملج يكون كالسوار تجعله المرأة على عضدها ، والخدمة : الخلخال تجعله المرأة فى رجلها .

وإذا كانت تلك الغزوة فى عام جدب وفى وقت حر شديد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام ويكرهون الشخوص عنها ، وكان العدو فيها كثير العدد ، والطريق إليه شاق وبعيد ، وهو إلى هذا له خبرة بالقتال وممارسة متعددة له فإن التنافس بين المسلمين للاشتراك فى هذه الغزوة يعبر فى صدق عن حب الجهاد ، وتحمل كل المشاق من أجل نصرة دين الله ، فلا غرو أن يبكى الذين ليس لديهم ما يحملهم للجهاد ، وعرف من هؤلاء سبعة اشتهروا بالبكائين ، جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة ، فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، فولوا يبكون . قال تعالى : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون** ﴾ (١).

وجاء للرسول ﷺ ناس من المنافقين يستأذنون من غير علة فأذن لهم ، وقد عاتب الحق سبحانه نبيه بقوله : ﴿ **عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**﴾ (٢).

وأما المُعَذِّرُون ــ وهم الذين يعتذرون اعتلالاً ولا عذر لهم على الحقيقة ــ وهؤلاء من الأعراب فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، قال تعالى:

---

(١) التوبة : ٩٢ .

(٢) التوبة : ٤٣ .

﴿ وجاء المُعَذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ (١).

وإذا كان هؤلاء المنافقون الذين اعتذروا وتخلفوا عن الجهاد كاذبين فإن هناك ثلاثة من الذين تخلفوا لم يكن لديهم عذر فى التخلف واعترفوا للرسولﷺ بعد عودته من تبوك ؛ فقد قال أحدهم للرسول : والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

وقد نهى الرسول ﷺ الناس عن كلام هؤلاء الثلاثة . فاجتنبهم الناس ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة ، ذاقوا فيها مرارة الهجر والعذاب النفسى حتى من زوجاتهم ، ولأنهم صدقوا الله فى توبتهم وندمهم فقد قبل الله توبتهم وعفا عنهم ، قال تعالى : **﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسرةِ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾** (٢).

---

(١) التوبة : ٩٠ .

(٢) التوبة : ١١٧- ١١٨.

لقد تاب الله عليهم من هذا الذنب الخاص ، ليتوبوا توبـــة عامـــة عن كل ما مضى ، وليثيبوا إلى الله إنابة كاملة فى كل ما سيأتى .

إن فى يوم العسرة امتحانًا لمواقف المؤمنين والمنافقين والذيـــن أخطأوا واعترفوا بخطئهم ، وفى هذه المواقف كلها توجيهات موحيـة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

يوم الحج الأكبر

جاء ذكر يوم الحج الأكبر فى الآية الثالثة من سورة التوبة أو براءة وقد تباينت الروايات فى تحديد هذا اليوم ، فمنها ما يذهب إلى أن المقصود بها يوم عرفة ، لقول رسول الله ﷺ : الحج عرفة ووصف الحج بالأكبر ، لأن العمرة تسمى بالحج الأصغر .

وروى أن الإمام عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء إلى الجبانة ، فجاء رجل فأخذ بلجامها وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال : هو يومك هذا ، خل سبيلها [(١)]

ويقول الإمام الشوكانى فى تفسيره : ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هى ثابتة فى الصحيحين وغيرهما من طرق ، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المُصَرِحة بأنه يوم عرفة [(٢)].

وعلاقة هذا اليوم بحياة محمد ﷺ أنه كانت بين هذا النبى الكريم وبعض قبائل العرب عهود خاصة ، منهم من رعاها ، ومنهم من

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٣٦١.

(٢) فتح القدير ج٢ ، ص٣٢٦ .

خاس بها ، وكان بينه وبين العرب كافة عهد عام أن يكون البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا ، يشترك فى قصده والحج إليه جميع العرب ، فلم يكن يسع المسلمين حينئذ أن يمنعوا أحدًا من الحج سواء فى ذلك من آمن بالله ورسوله ومن أشرك ، ومن رعى حرمات البيت وعظم شعائره ، ومن كفر به وصد عنه ولا ريب أن فى هذا بعض التناقض والتعارض ، فلا يستساغ أن يجتمع حول البيت الحرام مؤمنون وكافرون ، من لهم قيم سامية يجاهدون فى سبيلها ، ومن درجوا على أعراف فاسدة يقاتلون للحفاظ عليها ، وللحيلولة دون أن يغمر النور أرجاء الأرض وينقذ الناس من جهالة الشرك وضلاله ، لذلك كان لا مناص من اتخاذ موقف حاسم من الشرك وأتباعه حتى يتحقق للأمة التى نصرها الله فى مواطن كثيرة أن تنهض برسالتها المقدسة فى تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس قاطبة ، لا يحول بينهم وبين هذا حائل من كيد أو نفاق أو شرك ، فنزلت آيات سورة براءة فى العام التاسع من الهجرة لتعلن إنهاء تلك العهود مع المشركين ، فهم بطبيعتهم لا يرعون عهدًا ، إنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، إنهم نكثوا أيمانهم ، إنهم يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .

إن من كانوا على هذا الخلق من نكث العهد ، وقطع الرحم ، وإظهار خلاف ما تنطوى عليه قلوبهم وضمائرهم ، ويهتبلون كل

الفرص للإساءة والعدوان ، لا سبيل إلى أن يكون بينهم وبين المؤمنين برسالة الحق والعدل والأخوة والمساواة تعايش أو لقاء فلابد من اجراء حاسم ، وتطهير حازم ، وإلا كانت ثورة الإسلام على الشرك ثورة وقتية غير مفضية إلى غايتها ، ولا واصلة إلى مداها .

وقد روى أن رسول الله ﷺ لما قفل من تبوك أراد الحج لكنه قال : إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر ليحج بالناس ، وكان ذلك في العام التاسع عام الوفود ، فلما خرج أبو بكر بمن معه من المسلمين ، وفصل عن البيت الحرام أنزل الله عز وجل أوائل سورة براءة ، فدعا رسول الله ﷺ عليا كرم الله وجهه وعهد إليه برسالة أمره أن يذيع بها فى الناس يوم الحج الأكبر بمنى ، فخرج على حتى أدرك أبا بكر رضى الله عنه ، فلما رآه أبو بكر قال له : أأمير أنت أم مأمور ؟ قال على : بل مأمور ، وأنبأه بما جاء به من قبل رسول ﷺ . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية ، وما ورثوا عن آبائهم من تقاليد وعادات تنافى الإيمان والتوحيد ، ومنها الطواف عراة بالبيت حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس ، يتلو قوله تعالى : « **براءة من الله ورسوله إلى الذين**

عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم .. ﴾ [1] . فقرأ عليهم نحو أربعين آية من مطلع السورة ثم صاح فيهم مناديا ، أيها الناس : إنى رسول رسول الله إليكم ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته .

وهذه المبادىء الأربعة التى أعلنها الإمام على فى يوم الحج الأكبر نيابة عن رسول الله ﷺ تمثل العزة والحزم والحكمة ، وتعلن انتهاء دولة الشرك فى الجزيرة كلها ، وأن السيادة للإسلام وحده فى هذه الأرض الطيبة وأن البيت الحرام لن تدنسه بعد اليوم مواريث الجاهلية وأعرافها الفاسدة إن هذه الحادثة وما نزل بشأنها قرآن يتلى كانت حدا فاصلا بين الإيمان والشرك ، وقضت على الوثنية والشرك قضاء مبرماً فى الجزيرة العربية ومكنت لدين الله فى الأرض ، وأكدت أن العزة والسيادة لله ولرسوله وللمؤمنين .

---

(١) التوبة : ١ــ ٣ .

يوم الوفاة

إذا كان يوم مولد محمد ﷺ أسعد يوم فى تارخ البشرية فإن يوم وفاته كان يوم حزن بالغ ، ولكنها سُنة الله فى خلقه ، فكل نفس ذائقة الموت ، والقرآن الكريم خاطب الرسول فى حياته : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ .

إن إنسانًا كمحمد فى عظمته وعبقريته ، ودعوته التى بُعث بها يكون الرزء فى موته فادحًا ، ويخفف من ألم مفارقة هذا النبى أنه ترك الأمة على منهج سليم وطريق مستقيم ، وأن وجدان كل مسلم يفيض بمشاعر الحب والولاء لهذا النبى الذى جاء بالهدى وخير الدنيا والآخرة .

إن محمدًا ﷺ فى حجة الوداع قبل وفاته بنحو ثلاثة أشهر خطب فى المسلمين أكثر من مرة ، وكان فى كل خطبة يكرر هذه الجملة : " **أيها الناس : اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ..** "

وهذه الجملة إرهاص بقرب الرحيل ، وهذا ما فهمه بعض الصحابة .

وفى حجة الوداع تلا الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾ (١).

فلما سمعها أبو بكر بكى ، لأنه أدرك أن الرسالة قد تمت وأنه قد دنا اليوم الذى يلقى فيه محمد ربه .

ويروى أن الحق سبحانه أنذر نبيه بموته حين أنزل عليه : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فقال : نعيت إلى نفسى محج حجة الوداع .

وقد مرض الرسول ﷺ بالحمى قبل وفاته بنحو أسبوعين ، ثم اشتد به المرض ، واشتكى من ذات الجنب شكوى شديدة ، واجتمع إليه نساؤه كلهن ، ودخلت عليه أم بشر ابن البراء بن معروف فقالت يا رسول الله : ما وجدت مثل هذه الحمى التى عليك على أحد ، فقال : إنا يُضَاعف لنا البلاء كما يُضَاعف لنا الأجر ، ما يقول الناس ؟ قالت يقولون يا رسول الله إنها ذات الجنب : فقال : ما كان الله ليسلطها على رسوله : إنها همزة من الشيطان ، ولكنها من الأكلة

(١) المائدة : ٣ ، الدرر فى اختصار المغازى والسير :

التى أكلت أنا و ابنك بخيبر من الشاة ، وكان يصيبنى منها عدادٌ مـــرة بعد مرة فكان هذا آوان انقطع أبهرى ، فمات ﷺ شـــهيدًا وكـــان إذا خف عنه ما يجد ، خرج فصلى بالناس ثَـقْلة ، قال مـــروا النـــاس فليصلوا [(١)] .

ورغب الرسول فى أن يمرض فى بيت عائشة لما ثقــل واشــتد وجعه فاستأذن زوجاته فأذن له .

وخرج فى يوم السبت العاشر من ربيع الأول ، وأحدق الناس به وهو على المنبر فقال : والذى نفسى بيده إنى لقائم علـــى الحـــوض الساعة ، ثم تشهد واستغفر للشهداء الذين قتلوا بأحد ثم قال : إن عبـدا من عباد الله خُيِّرَ بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار ما عنـــد الله ، فبكى أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : يا أبى وأمـــى نفديـــك بآبائنـــا وأمهاتنا وأنفسنا وأموالنا .

ولم يشك الرسول شكوى إلا سأل الله العافية حتى كان مرضـــه الذى مات فيه فإنه لم يدعو بالشفاء وطفق يقول : يـــا نفــس مـــالك تلوذين كل ملاذ .

---

(١) انظر امتاع الأسماع ، ص ٥٤٢ ، وقصة الشاة هى أن امرأة يهودية اسمها زينب ابنـــة الحارث ذبحت عنزا لها وطبختها وسمتها ، وقدمتها هدية للرسول ، فمضغ منـــها لقمــة ثم لفظها لأن ذراع الشاة أخبرته أنها مسمومة أما بشر بن البراء فقد ازدرد بعض اللحم فمــات وظل الرسول يشعر عدة مرات بالألم من جراء ما مضغ من لحم الشاة حتى توفى .

ولم يستطع الرسول لشدة مرضه أن يصلى بالناس ، فصلى أبو بكر بهم ـ إلى إن توفىﷺ ـ سبع عشر صلاة .

وتوفى ﷺ ضحى يوم الاثنين لاثنتى عشر مضت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة فى حجر عائشة رضى الله عنها ، وقد قال لها لما حضر ـ وهو مستند إلى صدرها ـ ما فَعَلَتِ الذهبُ فأتته بها وهو تسعة دنانير ، فقال انفقيها ، ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهى عنده [1].

وكان الصحابة فى أيام مرض الرسول ﷺ يسألون كل يوم عن صحة نبيهم فلما أذيع أنه توفى ، سيطر الحزن الشديد على الجميع ، وبدا على وجهوهم الذهول والجزع ، ولم يصدق بعضهم أنه توفى ومنهم عمر بن الخطاب الذى هدد بقتل من يقول أن محمدًا مات ، وما كاد يعلم أبو بكر بخبر وفاة الرسول وكان فى ضاحية من ضواحى المدينة حتى أسرع إلى بيت الرسول ، وكشف عن وجهه وقبله وقال : طبت حيًا وميتًا يا رسول الله ، ثم وقف خطيبًا فى الناس الذين تجمعوا حول بيت الرسول والأسى يعصف بهم والدموع تسيل على خدودهم فقال : أيها الناس : من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم قرأ :

---

(١) امتاع الأسماع ج١ ص ٥٤١-٥٤٧ .

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » (١) .

وعقب الفاروق على هذه الآية التى قرأها الصديق فقال : وكأنى لم اقرأ هذه الآية قبل ذلك .

وأنهت كلمة الصديق حالة الجزع لخبر موت الرسول ، وإن ظل الحزن مهيمنا على مشاعرهم . وأدرك الجميع أن محمدًا قد لقى ربه ، وأن سنة الله ماضية في خلقه ، وأن كل حى سيموت .

سلام الله عليك يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، لقد بلغت الرسالة كاملة ، وقمت خير قيام بالدعوة إلى الله ، وإن كنت قد غبت عن الأمة ببدنك فأنت حى معها بهديك ؛ فقد تركت فيها ما يجنبها العثرات ، ويحفظها من الضلال ويجعل لها منزلة الشهادة على غيرها من الأمم فأنت القائل :" **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا كتاب الله وسنتى** ".

وأمتك يا رسول الله تتعرض الآن لهجمة عاتية هجمة تبغى أن تطفىء النور الذى بعثت به ، وأن تحرف كلام الله عن مواضعه ، وأن تهمل التشريعات التى عليها صلاح الدين والدنيا ، ولكن لن تبلغ

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

هذه الهجمة غايتها فالخير فى الأمة باق إلى يوم القيامة كما أخـــبرت يا خير خلق الله .

صلاة الله وسلامه عليك يا محمد فى الأولين والآخريـــن وفـــى كل وقت وحين وفى الملأ الأعلى إلى يوم الدين .

اللهم احشرنا معه واسقنا من حوضـــه ولا تحرمنـــا شـــفاعته ، وكن للأمة على هؤلاء الفاسقين حتى لا تكون فتنة ، ويكـــون الديـــن كله لك.

والحمد لله رب العالمين .

كلمة أخيرة

بعد ذلك الحديث المجمل عن تلك الأيام فى حياة خـاتم الرسـل والأنبياء ما أهم النتائج أو الدروس المستفادة من هذا الحديث ؟ ومـاذا يوحى به من توصيات وتوجيهات ؟.

أما الدروس المستفادة من هذا الحديث فيمكن إجمالها فى النقـاط التالية : ـ

أولاً : عاش محمد ﷺ منذ أوحى إليه ، وجـاءه أمـر الله بـأن يصدع بالحق ، ويجهر بالخير حتى لحق بالرفيق الأعلى حياة اتسمت بالصراع مع الباطل ، وما كان هذا الصراع وما تمخض عنـه مـن عنت وطغيان للرسـول والذيـن اتبعـوه إلا قـوة دافعـة للصـبر والمصابرة ، والجهاد فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمـة الذين كفروا هى السفلى ..

ثانيًا : كان محمد ﷺ فى دعوته إلى الله صورة مشرقة للخلـق الإسلامى ، فقد حاول بالتى هى أحسن وسلك كل سبيل يتيح لـه أن يبلغ ما بعث به ، وما كان يقف من الذين عـادوه وآذوه إلا موقـف الحليم الرحيم الذى يسأل ربه أن يهدى قومه وما قال كما قال غـيره

من الأنبياء : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا ﴾ [1]. وإنما كان يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ..

ثالثًا : كان الرسول ﷺ يشاور أصحابه ويأخذ برأى الأغلبية وإن خالف ما يذهب إليه ، وهو بهذا يضرب المثل لكل قيادة بألا تستبد أو تلغى رأى الرعية ، لأن الشورى تعد القاعدة الصلبة لنظام الحكم فى الإسلام فمن استعان بها تأيد حكمه .. ومن استهان بها لم يرشد .

رابعًا : كان المنهج العلمى سمة بارزة فى حياة محمد ، ولهذا كان النجاح حليفه فى كل مراحل حياته ، وما نال الأمة فى عصره من عثرات إلا بسبب مخالفة المنهج الذى أخذ به ، وهذا يعنى أن على الأمة فى حاضرها أن تأخذ بالمنهج العلمى فى كل شأن من شئون حياتها حتى تستعيد تاريخها المشرق بالقوة والعزة والحضارة الإنسانية .

خامسًا : إن أصابع اليهود فى حياة محمد كانت وراء كثير مما تعرض له ، فهم قد غدروا وتآمروا ومات الرسول شهيدًا بسبب لحم الشاة المسمومة التى قدمتها له امرأة يهودية غادرة ، وفى ذلك ما يؤكد أن عداوة اليهود للأمة فى حاضرها ترتد إلى عصر البعثة ، وأن التاريخ فى كل عصوره لم يسجل لليهود إلا الحقد الدفين

---

(١) نوح : ٢٧ .

والتآمر الخسيس ضد الإسلام والمسلمين فلا غرو أن وصفهم القـرآن الكريم بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين .

والقضية خطيرة وتهدد مستقبل الأمة ، ولا سـبيل لدفـع هـذا الخطر الذى تحميه وتؤازره دول كبرى تزعم أنها تحمى الحريـات ، وتحافظ على حقوق الإنسان ، وتدعو إلـى الديمقراطيـة إلا بوحـدة جامعة وتعاون صادق واعتصام بحبل الله ..

وأما ما توحى به تلك الأيام من توجيـهات ودروس فأهمـها أن نأخذ الحياة بجد وعمل ، فالرسول فى مدة بعثته التى بلغت نحو ثلاث وعشرين سنة كان العمل المتواصل هو منهج حياته ، خاض معـارك كثيرة ، وواجه مشكلات متنوعة ، ولكنه انتصر فى النهاية ، والأمـة اليوم فى حاجة ملحة إلى عمل مخلص فى كل ميـدان مـن ميـادين الحياة ، عمل تسدد خطاه الروح الإسلامية حتى يكون هـذا العمـل من أجل أن تسود كلمة الحق ، وأن يخنس صوت الباطل وأن تعيـش الأمة حياة العزة والكرامة وحتى تظل بحـق خـير أمـة أخرجـت للناس .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

طبع بمطبعة وزارة الأوقاف

الثمن ٧٥ قرشاً

طبع بمطبعة وزارة الأوقاف